

36
روايات عالمية للجيب
Looloo
www.dvd4arab.com
ماوراء العالم
قصة : چون جريشام
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدِّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمى ، فى مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

المؤلف



(هـ . ب. لافكرافت) !

لماذا يملك كل كُتَّاب الرعب تقريبًا هذه الأسماء المفزعة ذات الرنين الكابوسى ؟ وإلى أن نكتشف يومًا ما سر هذه الظاهرة ، نتحدث هنا فى عجالة عن (لافكرافت) أهم كُتَّاب الرعب للقرن العشرين ..

(هـ . ب . لافكرافت) مدرسة متفردة من مدارس أدب الرعب ثقيل الوطء ، وهى مدرسة قد لا نجد لها شبيهًا إلا عند أمريكى آخر هو

(إدجار آلان بو) كِلا الأديبين ينتمى أساسًا إلى مدرسة كبرى من مدارس الأدب الرومانسى ، هى الرعب القوطى .. أى الرعب الشبيه بعوالم الكوابيس بالضبط . رعب الغموض والقلاع المظلمة والبروق والرعود ، والشرور المستطيرة والنفوس المعقدة المجنونة .. ومن أدباء هذه المدرسة (مارى شيللى) (وماتيورين) و (برام ستوكر) و(بكفورد) و (م . لويس) و (آن رادكليف) . لكن (لافكرافت) أستطاع أن يضفى على الرعب شاعرية أدبية معقدة ، مع خلفية من الهواجس النفسية المظلمة ذات مذاق خاص ، حيث الخطر ينبع من الداخل كما يفيض من الخارج . وصارت له مفردات عالمه الخاصة التى يعرفها قراؤه كأسمائهم مثل (نكرومونيكون) - (كتولو) - (آرخام) - (أزوث) - (العزيف Azif) - الخ ...

والملاحظ أنه يشير إليها فى أكثر من قصة حتى إن كثيرين صاروا يعتقدون أنها حقيقية .. وفى بعض خطاباته الخاصة يصف لصديق الطريقة المثلى لنطق لفظة Cthulu التى حير نطقها الكثيرين ، فيقول إن عليك أن تنطقها من حلقك مع تثبت طرف اللسان على سقف الفم ، والنباح لتخرج الكلمة (كت ـ هلو ـ لهو) !! لأن لسان البشر القاصر لا يستطيع نطق الاسم بالشكل الصحيح ! بل ما زال كثيرون يبحثون عن النسخة الأصلية من كتاب (نكرومونيكون) السحرى ، الذى كتبه شاعر يمنى اسمه (عبد اللّه الحظرد) حسب زعم (لافكرافت) ..

ولد (هوارد فيليب لافكرافت) فى أغسطس عام 1890 فى (بروفيدنس) بـ (رود آيلاند) وتربى مع أمه وجده بعد وفاة أبيه الغامضة (ظل سنتين يقال له أن أباه نائم الآن) وكان مولعًا بالقراءة

وبصفة خاصة (ألف ليلة و ليلة) التى قرأها
وعمره خمسة أعوام ، ولسوف يدرك دارسو أدبه
يومًا ما أن (ألف ليلة) قد تركت بصمة لا تمحى
فى كتابات الرجل ، وفى هذه الفترة أطلق على
نفسه اسم (عبد اللّه الحظرد) وهو نفس الاسم
الذى كتب به روايته الرهيبة (نكرومونيكون) كما
قلنا . وفى العام التالى اكتشف الأساطير الإغريقية
وقرأ الإلياذة والأوديسا .. ولعب جده دورًا مهمًا
فى جعله يحب حكايات الرعب القوطية .

كان قليل الانتظام فى المدرسة ، بلا أصدقاء
تقريبًا ، لكنه كان يدرس فى مدرسته الخاصة
الزاخرة بقراءات لا تنتهى . وفى سن المراهقة أصدر
بنفسه مجلة دورية عن علم الفلك ، وراسل إحدى
الصحف المحلية . ثم توفى جده وعانت أمه الكثير
من المشاكل المادية ، مما اضطرهما إلى ترك

البيت الجميل الذى تربى فيه الأديب ، وأصابه انهيار
عصبى حرمه من دخول الجامعة ، وقد ظلت هذه
النقطة تعذبه طيلة حياته .

فيما بعد التحق برابطة الأدباء الهواة المتحدين
عام 1914 وترقى الى أن صار رئيس الرابطة ،
وكانت هذه أهم خطوة فى حياته ، لأنه لم يكن واثقًا
قط مما إذا كان يملك حاسة الأدب أو يفتقر إليها ،
وكتب أول قصصه الخيالية المرعبة (الوحش فى
الكهف) ـ تقرؤها هنا ـ و (الخيميائى) ولاقى
نجاحًا أقنعه بأن يكرس قلمه لهذا النوع من الأدب ..
وفى الأدب كتب الكثير جدًا من الشعر ، مثله مثل
(آلان بو) مواطنه الأشهر .

وفى الوقت ذاته كان يراسل عددًا هائلاً من
الأصدقاء والمعارف ، حتى صار بالفعل من أهم من
كتبوا أدب الرسائل فى هذا القرن . وفى العام 1921

قابل (سارة) .. المرأة التى ستكون زوجته ، وهى مهاجرة سوفييتية تكبره فى العمر بسبعة أعوام . وتزوجا فى العام التالى ، وعاش معها فى شقتها فى (بروكلين) وكتب (لافكرافت) أسوأ كوابيسه القصصية مثل (الرعب فى ردهوك) و(هو) متأثر بجو (نيويورك) الكئيب الذى لم يحبه قط ، وفى عام 1929 تم الطلاق وعاد هو إلى (بروفيدنس) التى أحبها بعمق . كانت هذه آخر وأهم عشرة أعوام من عمره ، وفيها سافر كثيرًا جدًا وكتب أهم رواياته (نداء كتولو) و(فى جبال الجنون) و(ظل الزمن) كما كان يقرأ كثيرًا جدًا وفى كل موضوع من الفلك إلى التاريخ إلى النحت إلى السياسة .

ومع العام 1932 صارت قصصه أكثر تعقيدًا وصعوبة ، وصار يجد عسرًا فى بيعها ، لذا راح يكسب عيشه كمصحح لقصص الأشباح الرخيصة .

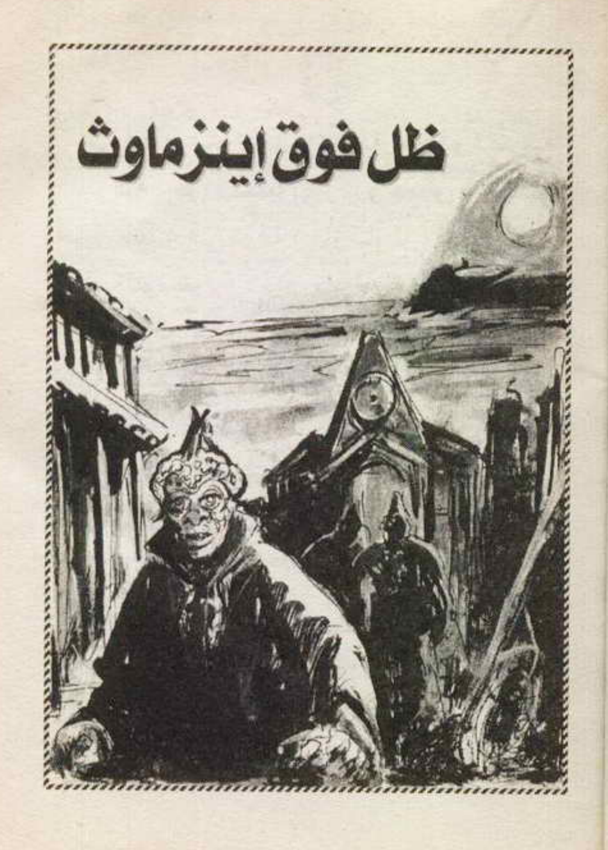
وفى العام 1937 اكتشف الأطباء أنه مصاب بحالة متقدمة من سرطان الأمعاء ، وسرعان ما توفى فى العام نفسه .

كان (لافكرافت) يتنبأ بنسيان أعماله بعد موته ، لأنه لم ينشر قط كتابًا بالمعنى الصحيح .. وربما تعتبر رواية (ظل فوق إينزماوث - 1936) هى العمل الوحيد له الذى نشر فى كتاب - وهى بين يديك الآن - وفيما عدا ذلك كانت أعماله العديدة مبعثرة فى المجلات والدوريات . وبعد وفاته تطوع تلميذاه اللذان شجعهما كثيرًا (أوجست درليث) و(دونالد وانديرى) بجمع أعماله وكونا دار نشر اسمها (بيت آرخام) ، وصارت كل إبداعاته متاحة للقراء وطلاب الأدب فى كتب حسنة الطباعة والتغليف .

فى هذا الكتيب والكتيب الذى يليه ، نقرأ بعض القصص القصيرة أو الروايات القصيرة لهذا الأديب

العظيم ، وقد حاولت تخفيف بعض الفقرات ، لكنــى لا أنصح صغار السن بتاتًا بقراءة هذين الكتيبين ، وهذه ليست دعاية لهما بالمناسبة ، بل هى الحقيقة !

د . أحمد خالد توفيق



1

فى شتاء عام 1927 - 1928 قام موظفو الحكومة الفيدرالية بإجراء تحقيق سرى وغامض ، بصدد أمور معينة فى مرفأ (اينزماوث) العتيق فى (ماساتشوستس) . ولم يعرف الجمهور بالأمر إلا فى فبراير مع سلسلة واسعة من الاعتقالات ، تلتها عمليات حرق وتفجير بالديناميت ـ بعد إنذار الأهالى طبعًا ـ لعدد كبير من المنازل العتيقة المتآكلة عبر الساحل المهجور . واعتبر غير الفضوليين هذه الصدامات جزءًا من الحرب الحكومية المستمرة ضد الخمور .

إلا أن متابعى الأخبار المخلصين تساءلوا عن سر هذا العدد المذهل من الاعتقالات ، والقوات الكبيرة المكلفة بهذا ، والسرية التى تحيط مصير المعتقلين . لم تكن هناك محاكمات ولا حتى

اتهامات محددة .. بل إن أيًا من المعتقلين لم يشاهد بعد هذا فى أى من سجون الدولة المعروفة .. وكانت هناك إشاعات عن معسكرات احتجاز ، وعن توزيع المعتقلين على السجون الحربية وسجون الأسطول ، لكن لم يتضح شىء.. وكانت (إينزماوث) نفسها تخلو من السكان تقريبًا فلم يبدأ ركب الحياة فيها إلا مؤخرًا ..

تعالت شكاوى بعض منظمات الحريات وحقوق الإنسان ، لكن الحكومة قابلت ممثليها بمناقشات هادئة واثقة ، ونتيجة لهذا صار دور هذه المنظمات سلبيًا .. وصار مندوبو الصحف أكثر تحفظًا ـ وإن بدا أنهم فى النهاية فى صف الحكومة ـ فقط صحيفة واحدة من صحف الفضائح (تابلويد) تحدثت عن طوربيدات انطلقت من غواصة نحو (شراع الشيطان) القريب من (إينزماوث) ..

كان الناس يتهامسون ويغمغمون ، لكن أشياء كثيرة كانت قد علمتهم أن يحتفظوا بأسرارهم ، وما كان يجدى أن تضغط عليهم .. بالإضافة لهذا كانوا يعلمون أقل القليل .. لأن المستنقعات المالحة الشاسعة غير المأهولة ، أبقتهم داخل الساحل بعيدًا عن (إينزماوث) ..

لكننى فى النهاية قد قررت أن أخرق الحظر على الكلام فى هذا الموضوع ، وأحسب أن هذا لن يحدث أذى عامًا اللهم بعض النفور والتقزز الناجمين عن توضيح ما وجده أولئك القوم المذعورون فى (إينزماوث) .. بالإضافة لهذا فإن ما وجده القوم يحتمل أكثر من تفسير .. لا أعرف بالضبط ما قد حكى من القصة كلها ، لكننى كنت أقرب من أى رجل عادى آخر إلى هذا الموضوع ، وقد اكتسبت انطباعات عنه قد تقودنى إلى سبل مأساوية ..

كنت أنا من فر من (إينزماوث) ملهوفًا فى ذلك الصباح الباكر يوم 16 يوليو عام 1927 ومن انهالت أسئلته ومناشداته للحكومة كى تتدخل .. وكنت أوثر الصمت ما دام الأمر طازجًا غير مؤكد بعد .. لكن الآن قد صارت القصة قديمة ، وولى اهتمام الناس بها ، ولدى رغبة غامضة فى أن أهمس بحكاية الساعات الرهيبة التى قضيتها ، فى ذلك المرفأ سيئ السمعة الذى يعج بالموت والشاذ من الأمور .. ومجرد السرد يعيد لى الثقة فى قدراتى ، ويطمئننى أننى لم أكن أول من سقط فريسة هلاوس الكابوس ، كما أنه يساعدنى على حزم أمرى فى القرار الذى أنوى اتخاذه ..

لم أكن قد سمعت عن (إينزماوث) قبل اليوم الذى رأيتها فيه ـ وحتى هذه اللحظة ـ لآخر مرة .. كنت أقوم بجولة فى (نيو إنجلند) أتملى جمال الطبيعة وأجمع التحف الأثرية ، وأدرس المعمار والأنساب ،

وكنت قد أزعمت أن أتجه من (نيوباريبورت) العتيقة إلى (آرخام) حيث نشأت أسرة والدتى . كنت أسافر بالقطار باحثًا عن أرخص الطرق دومًا . وقد قيل لى إن القطار البخارى هو أسرع طريقة للوصول إلى (آرخام) ، وصدمنى سعر التذكرة المرتفع . تعاطف موظف المحطة ذو الوجه المتنمر مع رغبتى فى الاقتصاد ، وعرض علىّ عرضًا خاصًا :

ـ « يمكنك أن تستقل هذه الحافلة التى لايحبها الناس هنا .. إنها تعبر (إينزماوث) التى لعلك سمعت عنها .. لهذا لا يحبونها هنا .. إن صاحبها من (إينزماوث) ويدعى (جو سارجنت) لكنه لايتقاضى أجرًا .. ولا أرى الكثيرين يركبونها على كل حال سوى سكان (إينزماوث) .. إنها تغادر من الميدان أمام صيدلية (هاموند) فى العاشرة صباحًا والسابعة مساءً .. »

وكانت هذه أول مرة أسمع فيها عن (إينزماوث) التى تغمرها الظلال . إن الإشارة إلى مدينة ليست على الخرائط أو أدلة المسافرين ، لأمر جدير بأن يستهوينى ، وشعرت بفضول غريب . إن المدينة التى تبعث هذا النفور لدى جيرانها لهى مدينة جديرة بزيارتها . سألته المزيد من المعلومات عن (إينزماوث) فقال فى لهجة من يعرف الكثير :

ـ « (إينزماوث) ؟ حسن .. إنها مدينة عجيبة عند ثغر (مانوكسيت) .. كانت مدينة ومرفأ قبل حرب 1812 لكنها تلاشت فى المائة عام الأخيرة .. إن بها مساكن خاوية أكثر مما بها من سكان .. لا نشاطات سكانية ما عدا صيد السمك وأبى جلمبو .. لديهم بقايا مصفاة ذهب قديمة .. كانت شيئًا ضخمًا يومًا ما ، ولابد أن صاحبها العجوز (مارش) أكثر ثراء من (قارون) .. لكن يبدو

أنـه أصيب بمرض جلدى يجعلـه يتـوارى عـن العيون .

« لماذا يكره الجميع (إينزماوث) ؟ حسن أيها الشاب .. لا يجب أن تصغى كثيرًا لما يقول الناس هنا .. من الصـعب جعلهم يتكلمـون ، لكنهم متى بـدءوا الكلام لا يكفون أبدًا .. إنهم يتهامسـون بأشياء عن (إينزماوث) منذ مائة عام .. بعض الأشياء تجعلك تضحك مثل كلامهم عن كـابتن (مارش) الأب العجوز وصفقاته مع الشيطان كـى يخرج لـه العفـاريت مـن الجحيـم ليعيشـوا فـى (إينزمـاوث) .. عن طقوس دينيـة غامضـة كـانت تدور قرب المرافئ التى وجدها القوم عام 1845 .. لكن هذه القصص لاتخيل على ..

« يجـب برغم هــذا أن تسـمع ما يقول بعض الشيوخ عن النتوء الأسود قرب الشـاطئ .. يسمونه

(شراع الشيطان) ، وهو يظل فـوق مسـتوى الماء أكثر الوقت ، لكنك لاتستطيع أن تعتبره أكثر من جزيـرة .. والأسطورة تقول إن هنـاك حشـدًا مـن الشـياطين يعيشـون ويتحركـون فـى الكهـوف الموجودة قرب قمته ، وقد اعتـاد البحـارة القيـام بجولات طويلة كى لايمروا قربه . ويزعم البعـض أن كابتن (مارش) كـان يتسلق هذا النتـوء فـى بعض الليالى حين يكون المد مناسبًا .. لربما فعل هذا .. إن التكوين الصخرى مثير للاهتمـام حقًـا ، لكن الأسـاطير تقـول إنه كـان يجـرى صـفقاته مـع الشياطين هنـاك .. والحقيقـة هـى أن الكـابتن هـو من أعطى تلك السمعة السيئة للنتوء ..

« كان هـذا قبـل وباء عـام 1846 الذى أودى بنصـف سـكان (إينزمـاوث) .. لـم يتصـوروا ما يحدث ، وفى الغالب كان هذا وباءً غريبًا جلبتـه

السفن من الصين أو سواها . لابد أنه لم يعد من السكان أكثر من مائتين أو ثلاثمائة الآن ..

« أضف لهذا أن المكان منعزل عن باقى البلاد تحاصره الغدران والمستنقعات ، وليس بوسعنا معرفة ما يدور هناك حقًا .. لابد أن الكابتن (مارش) العجوز قد جلب معه بعض العينات البشرية الغريبة من الخارج ، حين كانت سفنه الثلاث تجوب البحار فى العشرينات ..

« ثمة اختلاف عرقى معين فى سكان (إينزماوث) ولا أدرى كيف أشرحه ، لكنه سيجعل جلدك يقشعر .. لسوف تلاحظه فى (سارجنت) لو ركبت حافلته .. إن لبعض هؤلاء القوم رءوسًا صغيرة غريبة وأنوفًا مسطحة وأعينَ جاحظة لايبدو أنها ترمش أبدًا .. جلودهم أيضًا ليست على ما يرام .. إنها خشنة ملأى بالبثور ، وأعناقهم مجعدة .. لاحظ أيضًا أيها الشاب أن

الشيوخ أكثرهم غرابة فى المظهر .. إن الحيوانات تمقتهم ، وكانت لديهم مشاكل عديدة مع الخيول قبل اختراع السيارات .. إن خليجهم ملىء بالأسماك فى كل الأوقات ، لكن حاول أن تصطاد بعض السمك عندهم ، ولسوف يطردونك على الفور ..

« نعم .. هناك فندق فى (إينزماوث) يدعى (منزل جيلمان) لكنى لا اعتقد أنه جيد .. أقترح أن تركب فى العاشرة صباح غد ، فتلحق بالحافلة المتجهة إلى (آرخام) فى الثامنة مساءً ، فلا تضطر إلى المبيت فى (إينزماوث) ..

« كان هناك رجل يدعى (كازى) قد أمضى ليلة فى الفندق ، وقد أثار فزعه صوت ظل يتردد طيلة الليل ، وقد شعر أن القوم فى (إينزماوث) يراقبونه كحراس ، ووجد أن مصفاة الذهب مكان عجيب ..

وما رآه يتفق مع ما سمعته .. ثمة دفاتر فى حالة سيئة بلا حسابات واضحة ..

« من الألغاز الدائمة هنا ذلك المكان الذى يحصل آل (مارش) منه على الذهب الذى يصفونه .. كانت هناك إشاعات عن نوع أجنبى غامض من المجوهرات كان البحارة وعمال المصفاة يبيعونه ، وأحيانًا كانت نساء أسرة (مارش) يتحلين به .. يقال إن الكابتن (أوبد) قد قايضه فى مرفأ ما مع الأهالى الوثنيين ، خاصة أنه كان يطلب الكثير من الخرز الزجاجى وسواه من الأشياء التى يجرى بها البحارة مقايضة الوطنيين . ثمة قصة أخرى تقول إنه وجد كنز قراصنة فى (شراع الشيطان) لكن الجزء الغريب من القصة هو أن الكابتن مات منذ ستين عامًا ولم تدخل سفينة واحدة المرفأ منذ الحرب الأهلية ، لكن آل (مارش) مازالوا مهتمين بالحصول على الخرز

الزجاجى والحلى الرخيصة . من يدرى ؟ لعل هؤلاء القوم يحبون ارتداء هذه الأشياء .. يعلم اللّه أنهم يشبهون فى ملامحهم أكلة لحوم البشر فى البحار الجنوبية ..

« وكما قلت لك ، فإنه بعد الوباء ربما لايزيد عدد هؤلاء عن 400 نسمة فى البلدة كلها ، وهم كما قلت لك يعيشون على بيع الأسماك وأبى جلمبو ، ومن الغريب أن ترى كيف أن السمك يظهر بكثرة عندهم وليس فى مكان آخر ..

« من العسير تمامًا إجراء حصر سكانى لهؤلاء القوم ، ولعلك خمنت أنهم لايرحبون بالغرباء على الإطلاق هناك . وقد سمعت بنفسى عن موظف حكومى اختفى هناك ، كما أن هناك أقاويل عن آخر جن وهو فى (دانفرز) الآن .. لابد أنهم أثاروا ذعره بشكل لايوصف .. ولهذا

لو كنت مكانك ، لن أذهب هناك ليْلا . لم أذهب هناك قط ولا أرغب فى هذا ، لكنى أحسب الرحلات النهارية لن تؤذيك ، برغم أن القوم هنا لن ينصحوك بهذا .. »

* * *

ومن ثم قضيت جزءًا من الأمسية فى مكتبة (نيوباريبورت) العامة أبحث عن معلومات عن (إينزماوث) وحاولت أن اسأل الناس فى المطاعم والمتاجر ، لكنهم كانوا يجفلون ويحجمون عن الكلام ـ كما توقع موظف السكة الحديد . وأدركت أننى سأضيع وقتًا ثمينًا للتغلب على نفورهم ، وشكهم الغامض فى أى شخص يبدى اهتماما ما بـ (إينزماوث) . وبالنسبة للمتعلمين منهم كانت (إينزماوث) حالة مبالغًا فيها من الانحطاط المدنى .

لم تكن كتب التاريخ تحوى الكثير مما يقال ،

ما عدا أن المدينة أسست عام 1643 واشتهرت ببناء السفن قبل الثورة ، ولم يذكر إلا القليل عن وباء عام 1846 كأن فى هذا إهانة للمنطقة . بعد الحرب الأهلية انكمش النشاط الصناعى إلى تصفية الذهب لدى شركة (مارش) ، وصارت تجارة المشغولات الذهبية هى النشاط التجارى الوحيد بجانب صيد السمك الأبدى .

لم يحاول الأجانب الاستقرار هناك ، اللهم إلا مجموعة من البولنديين والبرتغاليين ، وقد تفرقوا بطريقة مأساوية . أما أكثر النقاط أهمية فهى تلك المجوهرات الغامضة التى ارتبطت بـ (إينزماوث) وكان وصفها يوحى بشىء ما من الغرابة حتى إننى لم أستطع إبعادها عن ذهنى .. وقد ذكر أنها معروضة فى متحف (نيوباريبورت) . وبرغم أن الوقت كان متأخرًا ، فإننى قررت أن أرى العينة المعروضة هناك والتى كتب أنها شىء

ضخم غريب النسب ، يبدو أنه صمم ليزين عمامة ، ولقد أرسل معى أمين المكتبة ورقة توصية إلى أمينة المتحف ، مس (آنا تيلتون) التى تعيش قرب المكتبة ، وقد قبلت العجوز اللطيفة أن تقودنى إلى المتحف المغلق فى هذه الساعة .

كانت عيناى مفتوحتين على الشىء الغريب الذى يلتمع فى الخزانة .. لم يكن الأمر يحتاج إلى حساسية جمالية زائدة كى أشهق وأنا أرى هذا السحر الغنى الغريب ، فوق وسادة من المخمل الأرجوانى . وحتى الآن أجد من العسير أن أصف مارأيت ..

كان طويلاً من الأمام ، له أطراف عديمة الانتظام غريبة كأنما هى عمامة مصممة لرأس مشوه . وبدا أن الخامة من الذهب ، لكن تألقًا غريبًا كان يشير إلى سبيكة أخرى من معدن

مجهول لا يقل جمالًا عن الذهب .. وكان بوسع المرء أن يتأمل هذا الجمال ساعات لاتنتهى ..

كنت مفتونا وقلت لنفسى إن هذا بسبب غرابة هذا الطراز من الفن .. كل فن رأيته كان ينتمى إلى تيار عرقى أو قومى ما ، إلا أن هذه العمامة لم تكن تنتمى لأية مدرسة فنية أعرفها .. إنها تنتمى لتقنية بارعة بلغت الكمال ، لكنها تقنية لاتمت لشرق أو غرب ، ولا ماض ولا حاضر .. كأن الحرفى الذى صنعها كان من كوكب آخر ..

وعرفت من مس (آنا تيلتون) أن أحد رجال (إينزماوث) قد رهنها مقابل مبلغ تافه من المال ، ثم قتل فى مشاجرة ، وهكذا اشترت الحكومة هذه التحفة من صاحب محل الرهونات فورًا ، ويقال إن لها أصلاً هنديًا أو هند . صينيًا لكننى أجد أن هذا غير دقيق .. وقالت لى مس (آنا تيلتون) إن

محاولات آل (مارش) لم تنقطع قط من أجل شراء هذه القطعة ، برغم رفض إدارة المتحف البات لذلك ..

قالت لى السيدة الطيبة وهى تقتادنى إلى خارج المتحف إنها لم تر (إينزماوث) قط ، لكنها تشمئز من ذلك المجتمع الذى ينحدر عن مستويات التحضر ، وقالت إن موضوع تلك الطقوس الدينية الغامضة هناك صحيح ، وإنه قد أدى إلى تلاشى أكثر الكنائس التقليدية هناك . قالت لى إن تلك الممارسات كانت تتم تحت مسمى (طريقة ديجون السرية)(*) ، ومن الواضح أنها عقيدة وثنية مستوردة من الشرق منذ قرن مضى ، فى الوقت الذى أجدبت فيه مصايد سمك (إينزماوث) .. ويمكن فهم انتشار هذه العقيدة بين البسطاء الذين أرهقهم جدب البحر ، ثم عودة الصيد الوفير مع

(*) ديجون : معبود وثنى فينيقى كان يصور كنصف إنسان ونصف سمكة

ظهور هذه العقيدة ، وسرعان ما سيطرت على المدينة وحلت محل الماسونية وسط هؤلاء القوم .

وكانت هذه أسبابًا ممتازة لمس (تلتون) التقية كى تتفادى مدينة الانحلال العتيقة هذه ، لكن بالنسبة لى كانت حافزًا قويًا .. كانت ميولى التاريخية والمعمارية تتحرك ، وبصعوبة استطعت أن أغفو تلك الليلة فى غرفتى بينما الظلام يتلاشى .

* * *

2

وقبل العاشرة من الصباح التالى ، وقفت مع حقيبة صغيرة أمام صيدلية (هاموند) أنتظر حافلة (إينزماوث) . وإذ دنا موعد وصول الحافلة لاحظت أن المتسكعين يبتعدون عن المكان . من الواضح أن موظف التذاكر لم يبالغ فى وصف مقت السكان المحليين لـ (إينزماوث) . بعد دقائق ظهرت عربة متسخة بالية لتقف جوارى . وأدركت على الفور أنها العربة المقصودة ، وتحققت أكثر حين قرأت مسارها المكتوب على الزجاج ..

كان هناك ثلاثة مسافرين : رجال غير مهندمين بحقائب متسخة سرعان ما ترجلوا ونزلوا ، وكذا فعل السائق - (جو سارجنت) طبعًا - الذى اتجه إلى المتجر ليبتاع شيئا ما . وحتى قبل أن أراه غمرنى شعور من النفور لا يمكن وصفه أو تفسيره .

وفهمت لم لا يرغب الأهالى فى ركوب حافلة يملكها ويقودها رجل كهذا ..

تأملته بعناية وهو يغادر المتجر وحاولت أن أفهم سر انطباعى الرهيب . كان رجلا قصير القامة محنى الكتفين نحيلًا ، عمره نحو الخامسة والثلاثين ، لكن التجاعيد فى عنقه تعطيه سنًا أكبر ما لم تدرس وجهه بعناية . كانت له أذنان مشوهتان وله خدان رماديان بلا لحية ، ما عدا بضع شعيرات صفراء شحيحة تتلوى بلا انتظام . أما يداه فكانتا كبيرتين لهما لون أزرق رمادى غريب جدًا ، وأصابع قصيرة بالمقارنة بالكفين لاحظت كذلك مشيته المتثاقلة وقدميه الهائلتين اللتين لا أعرف كيف وجد لهما حذاءين . كان من الواضح أنه يعمل فى مهنة الصيد لأن السمك منحه بعضًا من رائحته المنفرة . لم أستطع تحديد نوع الدم الأجنبى الذى يحمله .. لم يبد لى ذا طابع آسيوى أو بحر

متوسطى أو زنجى .. لكننى كنت أرى لماذا يعتبره الناس أجنبيًا .

تضايقت لفكرة عدم وجود ركاب آخرين ، فإننى لم أحب قط فكرة الركوب وحيدًا مع هذا السائق . لكننى فى النهاية قهرت مخاوفى ، وصعدت إلى الحافلة وقلت له كلمة واحدة (إينزماوث) .. لم يقل كلمة واحدة فجلست فى مقعد بعيدًا عنه لكن فى ذات الصف ..

بدأت الحافلة البالية تتحرك باهتزازة ، ونظرت عبر دخان العادم إلى الناس فى الشوارع فلاحظت أنهم لايرغبون فى النظر إلى الحافلة أو لايرغبون فى أن يبدوا ناظرين إليها . أخيرًا غادرت الحافلة المدينة ، ومضت وسط خضرة الريف غير المتناهية . ومن النافذة بدأت أرى البحر الأزرق بينما نحن نعبر جزيرة(بلام) .. الآن دخلنا منطقة تعج

بالرمال ، ومن حين لآخر كنت أرقب بقايا البنايات وجذوع الأشجار المبتورة ، فتذكرت ما كان يقال إن هذه كانت يوما من أخصب الأراضى ، وأجملها .. وأن التغيير جاء مع وباء عام 1846 وقد اعتقد البسطاء أن له علاقة ما بقوى الشر الخفية . السبب الحقيقى كان القطع الأحمق للأشجار قرب الساحل ، مما حرم التربة من أفضل حماية لها ، وفتح الباب للرمال تذروها الريح ..

كنت الآن ألقى (إينزماوث) وجهًا لوجه .. كانت مساحة واسعة ملأى بالمبانى ، وبرغم هذا كانت تعانى نقصًا غريبًا فى الحياة الواضحة . ومن بعض المداخن كنت نادرًا ما ترى دخانًا ينبعث ..

كنا الآن ننحدر فى طريقنا وصار بوسعى أن أرى عدة أسقف متآكلة ، ومن بينها رأيت السكة الحديدية الصدئة المهجورة التى غمرتها الأعشاب ، وأعمدة البرق التى لم تعد فيها أسلاك .. كنت أرى

المرفأ المهجور ، وبعيدًا وسط البحر رأيت ما بدا لى وسط المد كخط أسود ، يرتفع قليلاً فوق الماء لكنه يوحى بشر قديم كامن ..

كان هذا كما عرفت على الفور (شراع الشيطان) ..

لم نلق أحدًا على الطريق ، لكننا بدأنا نرى مزارع مهجورة فى درجات مختلفة من الخراب ، ثم لاحظت بضعة منازل مأهولة وقد علقت الخرق فى نوافذها ، وتبعثرت الأسماك الميتة فى أفنيتها . ومن حين لآخر كنت أرى أطفالًا لهم وجوه القردة يلعبون على درجات السلالم المغطاة بالأعشاب . ورأيت بعض الناس ، لكن شيئًا ما فى وجوههم وحركاتهم لم يرق لى كثيرًا وإن كنت لم أجد لهذا تفسيرًا . ربما رأيت صورة كهذه فى كتاب يوما ما ، وفى ظروف معينة من الرعب أو الحزن ، إلا أن هذا الانطباع فارقنى سريعا .

وما كان لى أن أصل إلى وجهتى من دون انطباع منفر قوى ، فقد وصلت الحافلة إلى تقاطع به كنائس على الجانبين وبقايا خضرة فى المركز .. ونظرت إلى البناية العالية عن يمينى ، بلونها الذى كان أبيض ثم استحال رماديًا متساقطًا ، وكانت اللافتة قد زالت أكثر كتابتها الذهبية ، لكنى بصعوبة استطعت قراءة كلمات (طريقة ديجون السرية) . فهذه إذن كانت الكنيسة التى تحولت الى ديانة سرية منحلة .

تشتت انتباهى لسماع جرس مشروخ عبر الشارع ، فاستدرت سريعًا لأنظر من النافذة .. كان الصوت قادمًا من كنيسة صخرية يبدو أنها من تاريخ أحدث من المبانى هنا ، وكانت مبنية على طراز قوطى غير متقن . وبرغم أن عقارب الساعة عليها كانت ضائعة فإننى عرفت أنها تعلن الساعة الحادية عشرة ..

وفجأة غاب إحساسى بالوقت وسط هلع تملكنى قبل أن أتبين حقيقته ..

كان باب الكنيسة مفتوحًا يُظهر مستطيلاً من السواد بالداخل ثم عبر شىء ما السواد ، ليشعل فى ذهنى ما يذكرنى بالكوابيس ، وإن كنت لا أفهم ما الكابوسى فيه بالضبط .

كان كائنًا حيًا ولو كنت أكثر اطمئنانًا لما وجدت ما يخيف فيه . من الواضح أن هذا كان الكاهن يرتدى رداءً خاصًا بـ (طريقة ديجون السرية) منذ بدلت تلك الأخيرة طقوس الكنائس المحلية . ربما كان الشىء الذى حرك ذلك الفزع فى لاوعيى هو تلك العمامة العجيبة التى يضعها على رأسه ، وهى نسخة بالضبط من التى رأيتها أمس مع مس (تيلتون) ..

الآن صرت أرى عددًا بسيطًا من الشباب منفرى الشكل على جانبى الطريق .. وكانت الطوابق السفلى من المنازل تؤوى أحيانًا متاجر ذات لافتات قذرة . كنت أسمع صوت تدفق مياه يزداد ارتفاعًا ، ثم عبرت الحافلة جسرًا فوق نهر صغير ،

واستطعت أن أرى شلالين عن بعد ، بينما صخب المياه قد صار يصم الآذان .. وأخيرًا رأيت مبنى قديمًا تقول لافتته إن هذا هو (بيت جيلمان) ..

سرنى أن أترك الحافلة ، وترجلت حاملاً حقيبتى إلى قاعة استقبال الفندق لأتركها هناك .. كان هناك شخص واحد .. رجل مسن لايحمل ما بدأت أسميه (سحنة إينزماوث) ، وقررت ألا أساله أيًا من الأسئلة التى تؤرقنى ..

غادرت الفندق وبدأت أتفقد المكان حولى ، ثم خطر لى أن أتجه إلى أحد محلات البقالة وهو محل من سلسلة محلات لها فروع فى كل البلاد ، لأننى افترضت أن العاملين به غالبًا ليسوا من مواطنى (إينزماوث) الأصليين .

كان هناك فتى وحيد فى السابعة عشرة من عمره ، وسرنى أن أتبين ذكاءه ولطفه الواعدين بمعلومات وافرة . وقد أدركت من اللحظة الأولى

أنه لا يحب المكان ولا رائحته السمكية الكريهة ولا قومه المخيفين . كان من (آرخام) ولم يكن يود ولا أسرته أن يعمل فى (إينزماوث) ، لكن سلسلة محلات البقالة أرسلته إلى هنا برغمه ، وما كان راغبًا فى أن يفقد عمله .

قال لى : إنه لا توجد غرفة تجارية فى (إينزماوث) ولا مكتبة عامة ، وإننى لا يجب أن أظهر شمالى النهر لأن القوم هناك عدائيون أجلاف . بعض الأماكن محرمة تمامًا كما تعلم ، لا يجب ـ مثلاً ـ أن يدنو المرء كثيرًا من مصفاة (مارش) أو الكنائس أو قرب المبنى الخاص بـ (طريقة ديجون السرية) . يبدو أن هذه الكنائس تمارس عقائد غامضة غير مقبولة ولا تقرها باقى كنائس البلاد .. ويبدو أن بعض هذه الطقوس تتضمن نوعًا من الخلود ـ بشكل ما ـ على الأرض .. لقد نصح د. (والاس) ـ قس الفتى فى (آرخام) ـ تلميذه

بألا ينضم إلى أية كنيسة من كنائس (إينزماوث) العجيبة ..

أما عن أهل (إينزماوث) فالفتى لا يملك تصورًا معينًا بصددهم .. إنهم أكثر حذرًا وتواريًا من الحيوانات فى جحورها .. وهم متفاهمون منسجمون تمامًا ويحتقرون العالم الخارجى كأنهم يعرفون حقائق أخرى للوجود . إن عيونهم التى لا ترمش تجعل رؤيتهم صادمة ، كما أن أصواتهم منفرة ، تثير الاشمئزاز حين تسمعهم ينشدون ليلاً فى كنائسهم ، خاصة فى أعيادهم التى تقع مرتين فى العام : فى 30 إبريل و 31 أكتوبر .

كانوا يحبون الماء بشدة ، ويسبحون كثيرًا جدًا ، ويتسابقون نحو (شراع الشيطان) . ولو فكرت فى الأمر لوجدت أن الشباب منهم كانوا الأكثر ظهورًا للعيان بينما شيوخهم هم الأكثر

قبحًا وتشوهًا . وكان الشاب واثقًا من أن هناك من هم فى حالة أسوأ داخل بيوتهم المغلقة ، ولربما فى أنفاق مجهولة تزعم القصص وجودها .

قال الفتى إنه لا جدوى من توجيه الأسئلة للمواطنين .. الشخص الوحيد الذى يمكن أن يتكلم هو عجوز مسن جدًا لكنه طبيعى المنظر ، يعيش فى شمال المدينة فى مبنى (المطافئ) الآيل للسقوط . هذا الرجل العتيق يدعى (زادوك ألن) وعمره 69 عامًا .. مخبول نوعًا بالإضافة إلى أنه سكير المدينة . إنه يحكى حكايات كثيرة لاتصدق أكثرها وليدة خياله المضطرب ، لكن المواطنين لايحبون أن يروه يتكلم مع الغرباء . وربما كان هو مصدر أكثر الإشاعات التى يتداولها القوم .

لم يكن واحد من غير المواطنين يجرؤ على البقاء خارجًا فى ساعة متأخرة ، ويقال إن هذا غير آمن عمومًا . بالإضافة إلى أن الشوارع تكون مظلمة بشكل مخيف .



قال الفتى إنه لا جدوى من توجيه الأسئلة للمواطنين .. الشخص الوحيد الذى يمكن أن يتكلم هو عجوز مسن جداً ..

كان العجوز (مارش) يعيش متواريًا تاركًا إدارة المصفاة لأحفاده ، ومن الواضح أن هؤلاء يعانون من مرض عضال .. كانت إحدى بناته لها منظر مروع شبيه بالسحلية وترتدى مجوهرات عجيبة ، ربما من نفس الطراز الذى كانت العمامة تنتمى إليه . ويرتدى القساوسة أو الكهنة أو أيًا ما كان اسمهم هنا نفس المجوهرات على رءوسهم ،لكن من العسير حقًا أن تتبين ملامحهم من قريب . وكانت هناك ثلاث أسر مهمة فى المدينة هى (آل ويت) و(آل جيلمان) و(آل إليوت) .

أخبرنى الفتى كذلك أن أكثر علامات الشوارع قد تلفت ، لذا رسم لى كروكيًا خشنًا لكنه مفيد للغاية ، لأهم معالم المدينة . وقد تبينت أهميته على الفور ووضعته فى جيبى مع الشكر العميق .

ولما لم يرق لى منظر المطعم ، فقد ابتعت بعض مقرمشات الجبن وكعك الزنجبيل ليكون غدائى

اليوم ، وانتويت أن أجوب الشوارع وأثرثر مع كل من يبدو غريبًا عن البلدة ، ثم أركب عربة الثامنة مساء المتجهة إلى (آرخام) .

بالطبع يتزايد الذعر الذى يسببه بيت مهجور ، بمتوالية هندسية أكثر منها عددية ، حين يتعلق الأمر بمدينة كاملة مهجورة . إن فكرة الخواء اللامتناهى الذى لم يعد يحوى سوى خيوط العناكب والذكريات والديدان الناخرة ، لفكرة تثير الهلع ولا تقدر أكثر الفلسفات مادية على قهرها . وكلما ابتعدت أكثر عن مركز المدينة كنت أرى وجوه القوم تتسم أكثر بسحنة (إينزماوث) التى ألفتها .. يبدو أن الغرباء عاشوا عند أطراف المدينة فقط ، ما لم تكن سحنة (إينزماوث) هذه مرضًا أكثر منها صفة وراثية .. عندها يكون المرضى أكثر احتشادًا عند أطراف المدينة ..

الحق أن (إينزماوث) بدأت تضغط أكثر فأكثر على أعصابى ..

وما ضايقنى بصفة خاصة هو تلك الأصوات القادمة من حيث لاتدرى .. إنها أصوات تصر وتخدش .. أصوات خشنة مثيرة للريبة .. وتساءلت فى نفسى عن كيف تبدو أصوات هؤلاء القوم .. الغريب أننى حتى هذه اللحظة لم أسمع أحدهم يتكلم ..

مشيت فى الشوارع نحو شمال البلدة ، وأثار دهشتى أنه لاتوجد قطط ولا كلاب فى (إينزماوث) .. السرية والتوارى هما الأساس فى هذه المدينة الخرساء الملأى بالموت والاغتراب . كان الجسر غير الآمن أمامى الآن وعليه لافتات تحذير ، لكنى قررت المجازفة وعبرت إلى الناحية الجنوبية .. كانت هناك عيون لاتطرف ترمقنى فى فضول واهتمام صامتين ، والحقيقة أن (إينزماوث) صارت لا تطاق أكثر فأكثر بالنسبة لى .. وقررت أن أبحث عن مركبة تنقلنى إلى (آرخام) مبكرًا قبل موعد الحافلة الذى بدا لى الآن بعيدًا جدًا ..

هنا رأيت مبنى (المطافئ) المتداعى على يسارى ، ولاحظت الوجه المحتقن والعينين الدامعتين للرجل العجوز الذى يرتدى الأسمال ، والجالس أمام البناية يثرثر مع رجلى إطفاء رثَّى المظهر ، لكن ملامحهما طبيعية . بالتاكيد هذا هو (زادوك ألن) .. العجوز التسعينى السكير نصف المجنون ، الذى يملك حكايات مذهلة ومخيفة عن (إينزماوث) .

★ ★ ★

3

لا بد أنها كانت جذبة ساخرة من قوى خفية مظلمة ، تلك التى جعلتنى أبدل خططى كما فعلت . كنت من قبل قد آليت أن أقصر ملاحظاتى على المعمار فقط ، بل وكنت أبحث عن طريقة عاجلة أغادر بها مدينة الموت والتحلل هذه .. لكن مرأى (زادوك ألن) جعلنى أخفف الخطو رويدًا مترددًا .

كان الفتى قد أنذرنى بألا أتكلم مع العجوز علنًا ، لكن فكرة الذكريات الشائخة لدى الرجل عن اضمحلال هذه المدينة ، وعن أيام المصانع الكبيرة والسفن ، كانت إغراء لاتستطيع أية حكمة أن تقاومة . فلابد أن العجوز رأى كل ما حدث فى (إينزماوث) منذ تسعين عاما ..

وكنت أعلم أننى لن أستطيع أن أبادره بالكلام ، لأن رجلى الإطفاء سيلاحظان ويعترضان ، ، وبدلاً من هذا قررت أن أبتاع زجاجة من الشراب ، وأجول بشكل عارض قرب الرجل حتى يلاحظها .. اتجهت إلى متجر بقالة قريب فاشتريت زجاجة بسعر ليس بالزهيد ، ثم عدت .. وكان الحظ حليفى لأننى وجدت العجوز يبتعد نحو منحنى (بيت جيلمان) . وطبقًا لخطتى مررت أمامه مستعرضًا ما اشتريت ، وشعرت به يقفو أثرى ، فرحت أمشى قاصدًا أكثر البقاع عزلة لأجذبه إليها .. كنت أفكر فى الواجهة الجنوبية المهجورة للبحر ، وهى نقطة مررت بها منذ قليل .. هناك لن يرانا أحد ولسوف نجد مقعدين حجريين عتيقين يمكن أن نجلس عليهما ونتكلم . وقبل أن أصل إلى الشارع الرئيسى سمعت صوتًا خافتًا يعانى من الربو يقول :

ـ « هيه يا سيد ! »

فسمحت للعجوز أن يلحق بى ويأخذ جرعات كبيرة من الزجاجة . وبدأنا نمشى معًا وسط الخرائب والعزلة التى تحيط بالكون من حولنا ، لكنى وجدت أن لسان الشيخ لم تنحل عقدته بالسرعة التى توقعتها . ووجدنا موضعًا صالحًا لمحادثتنا السرية بين الأشجار . فدعوت الرجل إلى الجلوس بين الصخور المكسوة بالطحالب . كان الجو يفوح برائحة الموت ، وكانت روائح الأسماك منفرة ، لكننى صممت ألا يعوقنى شىء .. لو أردت اللحاق بحافلة (آرخام) فليس لدى من الوقت سوى أربع ساعات ..

قدمت للرجل المزيد من الجرعات ، بينما رحت ألتهم طعام غدائى الرخيص . وحرصت ألا أقدم له أكثر من اللازم كى لا تتحول ثرثرته إلى غيبوبة .. لكن لخيبة أملى ظل الرجل يتحاشى الكلام عن (إينزماوث) والظل الذى يغطى ماضيها ، وراح يثرثر فى مواضيع أخرى كأخبار الصحف وقد

ظهر أنه عليم بها ، وإن كان مولعًا بفلسفتها بالطريقة الريفية المعتادة .

بعد ساعة بدا أن الزجاجة لن تكفى للظفر بنتائج من الرجل ، وهنا قدم لى الحظ الفرصة التى لم تستطع أسئلتى أن تقدمها .. كان ظهرى للبحر الذى يفوح برائحة الأسماك ، وكان هو يواجهه ، وقد حدث شىء جعله يثبت عينيه على خط (شراع الشيطان) البعيد الظاهر فوق الأمواج . يبدو أن المنظر لم يرق له ، لأنه بدأ سلسلة من عبارات السباب الواهنة انتهت بهمس مكتوم . وأمسك بياقة معطفى وراح يفح بتلميحات لا يمكن أن تخطئها ..

ـ « هناك حيث بدأ كل شىء .. ذلك المكان الملعون الزاخر بكل الشرور حيث تبدأ المياه العميقة.. بوابة الجحيم .. القبطان (أوبد) العجوز هو من فعلها .. هو من وجد ما ليس خيرًا له فى جزر البحار الجنوبية ..

« الكل كان فى حالة سيئة وقتها .. التجارة

سيئة .. المطاحن تخسر .. أفضل رجالنا ماتوا فى حرب 1812 أو فقدوا .. لكن (أوبد مارش) كانت لديه ثلاث سفن : (كولومبى) و (هيفتى) و (ملكة سومطرة) ..

« ما كان أحد مثل (أوبد مارش) .. الشيطان العجوز .. هه هه ! لقد دعا القوم إلى أن يتبعوه ، وأن يطيعوه فى طقوس شيطانية .. عسى أن تنجح القرابين فى إعادة السمك إلى سواحلهم .. (مات إليوت) صديقه تكلم كثيرًا أيضًا .. تكلم عن جزيرة شرق (تاهيتى) حيث الكثير من الخرائب الحجرية ، التى هى أقدم مما يتصور أى مخلوق .. توجد وجوه منحوتة للتماثيل شبيهة بما تراه فى تماثيل جزيرة (عيد الفصح)(*).. تماثيل متآكلة

(*) جزيرة عيد الفصح : من أهم الجزر التى ألهبت خيال الكُتاب .. الجزيرة جزء من (شيللى) فى جنوب المحيط الهادى ، وقد اكتشفها الهولنديون يوم عيد الفصح عام 1722 ، وتشتهر بالوجوه الحجرية المخيفة والغامضة المنحوتة من الحجر البركانى ، على سواحلها ..

كأنما كان البحر يغمرها يوما ، وعليها وجوه وحوش مفزعة .. وكان (مات) يا سيدى يزعم أن الأهالى لديهم كل السمك الذى يشتهون .. لديهم حلى وأساور ، ولديهم أسماك تشبه الضفادع ، وضفادع تشبه الأسماك ، وقد رسموها على كل أحجار جزيرتهم ..

« وكانت كل الجزر المجاورة تتساءل عن مصدر ظفر كل هؤلاء القوم بالأسماك ، بينما هم يعانون من شحتها .. لقد تساءل (مات) عن هذا ، ومعه تساءل القبطان (أوبد) . لاحظ الرجلان أيضًا أن عددًا لابأس به من الشباب يرحلون كل عام ، فلا يعودون أبدًا ، وأنه لم يكن ثمة الكثير من الشيوخ .. لقد احتاج (أوبد) إلى جهد جهيد ليعرف سرهم .. لا أدرى كيف فعلها لكنه بالتاكيد قايضهم كثيرًا ..

« وأخيرًا ظفر بالسر من كبيرهم (والاكى) كما

كانوا يسمونه .. لم يكن أحد ليصدق حرفًا يلفظه الوثنى العجوز ، لكن (أوبد) كان يقرأ الناس كأنهم كتب .. هه هه ! بالمثل لا أحد يصدق حرفًا مما أقول الآن ، وأعرف أنك أنت أيضًا لن تفعل أيها الشاب .. برغم أن لك عينين حادتين قارئتين كعينى (أوبد) .

« يبدو أن أولئك القوم كانوا يضحون بعدد كبير من شبابهم وبناتهم من أجل تلك الشياطين التى تعيش تحت الماء ، وينالون مزايا كثيرة مقابل هذا .. وهم يرسمونها كأسماك تشبه الضفادع أو ضفادع تشبه الأسماك ، على كل أحجار جزيرتهم .. يبدو أن هذه الشياطين تعيش فى مدن فى قاع البحر ، وقد عرف المواطنون هذه الحقيقة ، وتعلموا كيف يتعايشون معها ، وكيف يضحون بعدد معين مرتين كل عام ، وفى المقابل يجىء لهم السمك من كل أرجاء البحر ، وربما بعض الحلى الثمينة من حين لآخر ..

« وبمرور الوقت صارت هذه الشياطين قادرة على زيارة الجزيرة والاختلاط بأهلها .. ويبدو أن تزاوجا حدث بينها وبين أهل الجزيرة . وعرف البشر من شياطين البحر أنه لو حدث اختلاط فى الدماء ، فإن الذرية تبدو أوّلاً أقرب إلى البشر ، وبمرور الوقت تغدو أقرب إلى الوحوش ، ثم سرعان ما تعود للبحر لاحقة بأسلافها القديمين .. ولقد رأى (أوبد) بنفسه كيف ينمو الصغار ، ويتحولون يومًا فيومًا إلى وحوش ، ثم سرعان ما يرحلون إلى المحيط .. هناك من يولدون وهم يشبهون الوحوش بشدة ، وسرعان ما يتحول هؤلاء سريعًا .. أما البعض فيتأخر فى التحول ربما إلى سن السبعين ، لكنه فى النهاية يرحل لاحقًا بأسلافه .. ومن الغريب أن هذه الذرية تكون منيعة تمامًا ما لم تقتل قتلاً ..

« لابد أن (أوبد) بدأ الفكرة حين سمعها من

(والاكى) ، ولم يكن هذا الأخير يحوى قطرة من دم الأسماك ـ الضفادع ، لأنه من سلالة ملكية لايجوز خلط دمائها بدماء أخرى .. وقد أعطاه الملك تعويذة من الرصاص قال إنها تجذب الأسماك من أى مكان فى الماء ، والفكرة أن تلقيها فى الماء مع بعض الأدعية المناسبة . لم يحب (مات) هذا كله وطالب بترك الجزيرة حالًا ، لكن (أوبد) راقت له فكرة الثراء والظفر بمزيد من تلك الحلى الغامضة ، وهى التى عاد بها إلى (إينزماوث) وبنى مصفاة الذهب .

« حسن .. ثم جاء العام 1838 حين كنت أنا طفلاً فى السابعة .. عاد (أوبد) إلى الجزيرة الوثنية فوجد قومها قد أبيدوا ، وكل مبانى الجزيرة قد تحولت إلى خرائب ، ولم تعد هناك حلية واحدة .. لابد أن أهالى الجزر المجاورة شعروا بما يدور ، وقرروا

الخلاص منهم .. فقط وجد (أوبد) صخورًا عليها أشياء يمكن أن تسميها (سواستيكا) .. ربما كانت هذه علامات الأسلاف .. لابد أن هذا أحزنه حقًا خاصة أنه كان يمر بظروف سيئة .. وبالطبع حين يعانى صاحب السفن يعانى البحارة أكثر ..

« وعاد (أوبد) إلى (إينزماوث) وقال لأهلها إنه يعرف طريقة مؤكدة لاجتلاب الأسماك ، وإنهاء هذا الخراب والمجاعة .. لكنه بحاجة إلى بعض الشجعان كى يعاونوه .. بالطبع فهم البحارة الذين كانوا معه على (ملكة سومطرة) ما ينتويه ، وارتجفوا إذ تذكروا شياطين البحر ، بينما تحمس الباقون .. »

هنا توقف الرجل عن الكلام ، وغرق فى صمت مخيف ، وراح ينظر فى عصبية من فوق كتفه ، وحين كلمته لم يرد علىّ فقررت أن أجعله

ينهى الزجاجة .. إن القصة المخبولة التى كان يحكيها لى قد شدتنى .. لم أصدق لحظة واحدة أنها حقيقية ، لكنى أدركت أن بها رائحة الحقيقة ، وقد عالجتها مخيلة نشطة بارعة .. تركته ينهى الزجاجة حتى آخر قطرة ، وأذهلنى أن صوته لم يثقل لحظة .. راح يغمغم ، فدنوت منه لأستمع .. حقًا كان يقول كلمات لها معنى :

- « (مات) المسكين .. (مات) كان يعارض هذا وقد حاول إقناع القوم ، لكنهم لم يقتنعوا .. لقد طردوا الخورى الطائفى من البلدة ، وتلاه القس الميثودى .. ولم أرى خورى العماد قط من ساعتها .. كنت صغيرًا لكنى عرفت وسمعت كل هذا ..

« أنت لا تصدقنى .. أليس كذلك ؟ إذن قل لى لماذا كان القبطان (أوبد) ومعه عشرون رجلاً ،

يذهبون إلى (شراع الشيطان) ليلاً كى ينشدوا أناشيد تسمعها كل المدينة ؟ ولماذا كان يلقى بأجسام غامضة فى الماء ؟ ولماذا يلبس خورية الكنيسة الجديدة التى أنشأها (أوبد) تلك الأشياء الغريبة على رءوسهم ليبدوا كشياطين البحار ؟ »

كانت عيناه متوحشتين الآن ولحيته البيضاء المتسخة تلتمع ، وقد رآنى (زادوك) أتراجع فى ذعر لأنه راح يضحك فى شيطانية :

- « هه هه هه ! هل من أحد رأى أو سمع شيئًا عن (حيرام جيلمان) ؟ وماذا عن (نك بيرس) ؟ و (لولى ويت) ؟ كنت صبيًا أسرق قارب أبى وأتسلل إلى (شراع الشيطان) وأسمع الأجساد الثقيلة تهوى فى الماء .. وبدأت أحوال الجزيرة تتجسن .. السمك يحتشد ، والحلى تظهر ، والدخان

ينبعث من المصفاة .. الله (تعالى) يعلم حجم حمولات السمك التى كنا نبيعها فى (آرخام) .. وجاء بعض صيادين من الخارج ليجربوا حظهم ، لكنهم كانوا يختفون فلا تسمع عنهم ثانية .. لا أحسب أن (أوبد) كان يفكر فى خلط الدماء مع شياطين البحر ، بل كان المعدن الثمين هو جل ما يريد .. لكن هذا تم بالتدريج وبدأت سلالة هجينة تظهر فى المدينة . بل إن ابنة (أوبد مارش) التى أنجبها من إحدى شيطانات البحر ، قد تزوجت من رجل محترم من (آرخام) .. والبائس لم يشك فى شىء لأن منظرها كان طبيعيًا تمامًا ..

« بدأت إشاعات تتردد فى المدن المجاورة عما يحدث فى (شراع الشيطان) ، وكنت أنا من أخبر المختار (مانورت) ببعض ما يحدث فى سكون الليل .. وعندما جاء الليل .. اتجه بعض الرجال فى قارب إلى هناك ، وسمعنا طلقات الرصاص ،

وبعد هذا اقتادوا (أوبد) وثلاثين من رجاله إلى السجن ، وهكذا مرت فترة طويلة لم تقدم فيها القرابين لأولئك الأسلاف ...

« وفى تلك الليلة المريعة .. رأيتهم .. مئات منهم .. كلهم حول (شراع الشيطان) ويسبحون نحو المرفأ .. رباه ! ماحدث فى شوارع (إينزماوث) ليلتها ! قرعوا بابنا لكن أبى لم يفتح .. ثم غادر من نافذة المطبخ حاملًا بندقيته ليرى ما سيفعله المختار (مانورت) .. مئات الموتى والمحتضرين .. طلقات رصاص .. انفتحت الزنازين .. خيانة .. لقد حسب القوم أنه الوباء حين دخلوا (إينزماوث) ووجدوا نصف أهلها مفقودين .. لم يبق سوى أتباع (أوبد) .. ولم أسمع قط عن أبى من وقتها ..

وعاد (أوبد) ليعلن أنه صار الحاكم المطلق ،



كان البائس يهذى بشدة .. كان يبكى
والدموع تغرق لحيته

وأن على الجميع طاعته والانضمام لعقيدة (داجون) .. سيبدو كل شىء طبيعيًا أمام العالم الخارجى ، لكننا سنتحاشى الغرباء ونتظاهر بالحياء منهم .. كتولو فتاجن ! فنجلوى مجلونافه .. كتولو ريليه .. وجاه ناجل فتاجا ! »

كان البائس يهذى بشدة .. كان يبكى والدموع تغرق لحيته ..

« رباه ! ما هذا الذى رأيته وأنا فى الخامسة عشرة ! مين مين .. تيكل أوفارزين .. لقد أقسمت أن أتبعه لأظل حيًا .. أقسمت أول قسمين لكنى لم أجسر على أن أقسم الثالث .. »

وبدأ يحاول التماسك وهو يرمق المد يتزايد من بعيد .. راح يتكلم بصوت عال ليشجع نفسه :

ـ « هيه .. لم لا تقول شيئًا ؟ كيف تحب أن تعيش فى مدينة كهذه ، تملؤها شياطين البحر فى كل

مكان ، ينبحون و يعوون ليلاً .. تسمعهم من مبنى الكنيسة الذى صار الآن (طريقة ديجون الخفية) ؟ »

كان يصرخ الآن فعلاً ، وقد أثار هذا هلعى بحق ..

ـ « سحقًا لك ! لاتجلس ترمقنى بعينيك هذين .. هل تريد أن تعرف الرعب الحقيقى ؟ ها هو ذا .. إنه ليس ما فعلته تلك الشياطين بل ما سوف تفعله .. سوف تجلب أشياء من البحر .. وعندها .. »

كان وجهه الآن قد التوى بالخوف حتى صار قناعًا تراجيديًا إغريقيًا .. وعيناه فعليًا فارقتا المحجرين .. ومخالبه تتعلق بكتفى .. كان ينظر إلى البحر مذعورًا ، ويهزنى وقد صار صوته أدنى إلى الهمس :

« ارحل من هنا .. ارحل من هنا .. لقد رأونا .. فر بحياتك ! غادر هذه المدينة ! »

وقبل أن أفهم كان قد أرخى قبضته عن كتفى ، وراح يركض مبتعدًا عن البحر .. نظرت للماء فلم أر ما يريب .. وحين وصلت إلى (ووتر ستريت) ونظرت إلى الشمال ، لم يكن من أثر لـ (زادوك ألن) .

★ ★ ★

4

من العسير أن أصف المزاج الذى كنت فيه ، بسبب هذه القصة .. قصة غدت فجأة مجنونة ومثيرة للرهبة ، شاذة ومفزعة . لقد أنذرنى صبى البقالة ، لكن الحقيقة تركتنى حائرًا مضطربًا .

فيما بعد يمكننى أن أمحص القصة ، وأجد فيها دلالة تاريخية ما ، أما الآن فأنا أريد طردها من ذهنى ..

إن الوقت قد تأخر .. وساعتى تقول إنها السابعة والربع ، ولسوف تتحرك حافلة (آرخام) فى الثامنة . لهذا مشيت مسرعًا عبر الشوارع الخالية نحو الفندق حيث تركت حقيبتى ، وحيث يمكننى اللحاق بالحافلة ..

كنت أنظر من فوق كتفى من حين لآخر ، وخطر لى كم سيكون بهيجًا أن أترك (إينزماوث) كريهة الرائحة ، التى يظللها الخوف .. برغم هذا لم أدع عينى تفوت بعض الطرز المعمارية الجميلة هنا وهناك ..

وصلت إلى شارع (فول) فوجدت مجموعات متناثرة من القوم الهامسين ، وحين وصلت أخيرًا إلى فندق (جيلمان) وجدت أن أكثر المتسكعين يحتشدون أمام بابه . وبدا لى أن عيونًا مبتلة جاحظة كثيرة راحت ترمقنى وأنا أسترد حقيبتى بالداخل ، وتمنيت ألاّ يرافقنى واحد من هذه المخلوقات الكريهة فى رحلتى ..

وصلت الحافلة مبكرًا قبل الثامنة ، وبها ثلاثة ركاب ، وتبادل شخص شيطانى المظهر بضع كلمات غير واضحة مع السائق .. ترجل السائق

نحو الفندق ، بينما نزل الركاب وتبادلوا بضع كلمات مع متسكع بلغة أكاد أن أقسم إنها ليست الإنجليزية ..

صعدت إلى الحافلة واتخذت المقعد ذاته ، حين صعد (سارجنت) وغمغم ببضع كلمات بصوت حلقى منفر .. فهمت أننى تعس الحظ بشدة .. ثمة مشاكل مع المحرك ولن يستطيع الوصول إلى (آرخام) .. لا .. غالبًا لن يتم إصلاحه الليلة ، وما من سبل أخرى لمغادرة (إينزماوث) .. ربما كان علىَّ أن أبيت فى (جيلمان) .. ولربما أجرى لى الموظف تخفيضًا ، لكن ما من شىء يمكن عمله ..

عدت إلى الفندق كارهًا فكرة المبيت فى هذه البلدة ، فأخبرنى الموظف أن بوسعى المبيت فى الغرفة 428 مقابل دولار ، وهى واسعة ولكن ليس بها ماء حار ..

دفعت الدولار وصعدت ثلاثة طوابق وراء الموظف غريب المنظر ، وكان الفندق خاليًا من الحياة تمامًا ..

وكانت غرفتى كئيبة ذات نافذتين وأثاث رخيص ، تطل على ساحة قذرة تتناثر فيها قطع القرميد . ومن بعيد ترى ريفًا يغص بالمستنقعات ..

كان النهار لم يرحل بعد ، فنزلت إلى الميدان وبحثت عن مكان أتناول فيه عشائى .. ولأن البقالة كانت مغلقة ، فقد قررت أن أجازف بتجربة المطعم ، وكان صاحبه رجلاً منحنى الظهر له يدان غليظتان إلى حد لا يصدق ، وله عينان جاحظتان لا ترمشان .. وسرنى أن أكثر الطعام يؤخذ من علب محفوظة .. ووجدت أن سلطانية من الحساء مع بعض المقرمشات تكفينى ، فسرعان ما عدت إلى غرفتى الكئيبة فى (جيلمان) ..

ودنا الليل فأضأت المصباح الكهربى المعلق فوق السرير المعتى الرخيص ، ورحت أقرأ جريدة وجدتها لدى الموظف .. وشعرت بحاجتى لأن أبقى عقلى شاردًا كى لا أفكر فى غرائب تلك المدينة ، بينما أنا داخل حدودها .. وكان علىّ أن أبقى وجه سكير القرية المجنون بعيدًا عن أحلامى قدر الإمكان ..

لربما كان هذا هينًا لو أن الغرفة لم تكن عفنة الرائحة هكذا ، ولو لم تتحد رائحتها مع رائحة القرية الزفرة لتصنع فى ذهنى مزيجًا من الموت والتحلل .. بالإضافة لهذا ضايقنى عدم وجود مزلاج على باب حجرتى .. ولاحظت أنه منتزع منذ وقت ليس بالبعيد ..

وجدت مزلاجًا على باب خزانة الثياب فقررت أن أنتزعه وأثبته على الباب على سبيل الاطمئنان ، ونجحت فى هذا باستعمال أداة من طراز (ثلاثة فى واحد) أحملها فى جيبى ، كان من ضمن

ما تقدمه لك مفك برغى .. ونظرت إلى بابين جانبيين - أحدهما شمالى والآخر جنوبى - فوجدت على كل منهما مزلاجًا مغلقًا بحالة جيدة ..

شعرت براحة ليس لكونى أهاب خطرًا ما ، ولكن لكون أى سبيل للأمان الشخصى شيئًا محببًا فى هذه البيئة المقلقة . قررت كذلك أن أنام بثيابى كاملة باستثناء الحذاء ، وأخرجت من حقيبتى كشافًا صغيرًا دسسته فى جيبى حتى إذا ما صحوت ليلاً ، أمكننى رؤية ساعتى على ضوء الكشاف .

لكن النعاس لم يأت .. وحين حللت أفكارى ، وجدت لدهشتى أننى أصغى لشىء ما .. نعم .. كنت أصغى لشىء ما أهابه لكننى لا أستطيع تسميته .. سمعت صوت صرير على السلم ، وهو صوت لم أحبه كثيرًا .. وتساءلت عما إذا كان من الحكمة أن أخلد للنوم أصلاً ؟ هذه مدينة غريبة

بها قوم غرباء ، ولقد اختفى الكثيرون هنا .. أترى هذا فندقًا من تلك الفنادق التى يذبح نزلاؤها لسرقتهم ؟ ليس فى مظهرى ما يوحى بثراء زائد .. أم ترى هؤلاء القوم فعلاً يحنقون علىَّ بسبب اتصالى بالسكير وفضولى الزائد ؟

فى النهاية غلبنى تعب ليست له علاقة بالنعاس ، وصحوت منه على ذلك الصوت المؤكد الذى لاريب فيه ، والذى يؤكد أننى كنت على حق فى مخاوفى .. كان هناك ذلك الصوت لقفل باب حجرتى يجرب أحدهم فيه مفتاحًا .. بحذر .. بسرية .. بتردد !

صدمنى ذلك التبدل فى التهديد من توجس غامض إلى حقيقة آنية ، وسقط علىَّ كضربة قوية .. ولم أشك لحظة فى أن يكون هذا العبث فى القفل وليد غلطة .

ثم توقف العبث .. وبعد قليل سمعت صوت عبث آخر بالمفتاح فى باب جانبى من البابين الآخرين فى حجرتى .. بالطبع ظل المزلاج ثابتًا ، وهكذا رحل المتسلل ، وبعد قليل تكرر الصوت الناعم .. هذه المرة من الباب الآخر فى حجرتى .. ثم عاد الصرير ، وأدركت أن المتسلل قد فهم أن الأبواب كلها موصدة ، وتخلى عن المحاولة مؤقتًا ..

لا أدرى لماذا صار القرار واضحًا فى ذهنى . إن هذا العابث فى الأقفال شخص لا ينبغى لقاؤه أو التعامل معه .. يجب أن أفر من الفندق حالاً .. أضأت المصباح فوق فراشى فلم يحدث شىء .. لقد انقطعت الكهرباء .. واضح أن عملاً شريرًا غامضًا يدور على أوسع نطاق .. لكن ما هو لا أعرف .. استعددت لمغادرة المكان ، فمشيت على أطراف أصابعى نحو النافذة .. لم يكن هناك سلم حريق عند هذا الجانب من الفندق .. لن أخرج

من هنا ولا من الباب الرئيسى .. لربما كانت فرصتى فى البابين الجانبيين .. سأقتحم الباب برغم المزاليج مستعملاً كتفى .. لن يكون هذا عسيرًا بالنسبة لبنية البيت المتداعية .. لكن ليس من دون ضوضاء طبعًا ..

قمت بتدعيم باب الغرفة الرئيسى باستعمال المكتب ، ورحت أفكر فى مدى هشاشة فرصى .. حتى لو خرجت من الغرفة فلن يكون بوسعى استعمال السلم .. سأحاول دخول غرفة أخرى يكون وضعها أسهل فى الوثب لأسفل .. ثم سيكون علىَّ مغادرة المدينة ..

كنت أعرف أن السبيل لمغادرة المدينة هو نحو الجنوب ، لذا تركزت عيناى على الباب الجنوبى فى غرفتى .. كان مصممًا لينفتح فى اتجاهى .. ليس هذا بابًا مفضلاً للاقتحام إذن .. وضعت الفراش خلفه لأمنع اقتحامه ، ثم اتجهت إلى الباب الشمالى .. وعرفت أن هذا مخرجى ..

كنت أفكر بعمق ، حين عاد صوت صرير الأرضية يتردد .. كان أعلى وأثقل .. وتوهج ضوء عابر عبر شراعة الباب .. وراحت ألواح الخشب فى الممر تئن تحت ثقل عظيم .. ثم فى النهاية دوت طرقة حازمة على بابى ..

للحظة حبست أنفاسى وانتظرت .. مرت آباد من الصمت ، ثم من جديد عادت القرعات الحازمة .. عرفت أن وقت العمل قد حان ، وهرعت إلى الباب الجنوبى الذى أزمعت اقتحامه . ازداد الدق إلحاحًا وتمنيت أن يغطى صوت الاقتحام .. ثم اندفعت نحو الباب بكتفى غير مبال بألم أو صدمة ..

فى النهاية انهار الباب لكن مع صوت تهشم عال عرفت أنهم سمعوه حتمًا ..

وسرعان ما دلفت إلى الحجرة الجانبية وأحكمت إغلاق الباب الخلفى .. ودفعت حوض غسيل خلفه ..

الآن أعرف أن أكثر مهاجمىَّ قد دخلوا الغرفة التى كنت فيها . لكن ذعرى لم يكن بسبب ضعف دفاعاتى ، ولكن لأن أحدًا من مطاردىَّ - برغم اللهاث والأنين والعواء من حين لآخر - لم ينطق بكلمة واحدة يمكن تمييز حروفها ... هرعت إلى النافذة ، وكنت أعرف أن مطاردىَّ يعرفون الآن أين أنا بالضبط ..

نظرت إلى السقف المنحدر تحتى ، فى ضوء القمر ، وجدت أن الوثبة ستكون خطرة بحق ، بسبب المنحدر الفظيع الذى سأسقط فوقه .. هنا وجدت أن ستائر كبيرة سميكة معلقة حول النافذة ، وكانت فرصة طيبة لتفادى خطر الوثبة .. جذبت الستائر بأعمدتها ، وربطت طرف الستارة فى قفل النافذة ، ثم دليتها حتى السقف المنحدر تحتى ..

وانحدرت على سلم الحبال المرتجل هذا ،

تاركًا خلفى للأبد فندق (جيلمان) بظلاله وأصواته الرهيبة ..

هبطت على السقف المنحدر فى حذر ، ونظرت فوقى لكنى لم أر أحدًا فى سواد النافذة .. فقط من بعيد كنت أرى الأضواء تلتمع آتية من مبنى (طريقة ديجون السرية) ومبنى الكنيسة الطائفية . وتمنيت أن أهبط إلى الفناء سريعًا قبل أن يعم الإنذار بهربى .. كان الارتفاع بسيطًا ، وهويت لأسفل فوق أرض مغبرة امتلأت بالعلب الفارغة والبراميل ..

كان المكان مفزعًا لكنى لم أكن رائق البال لهذه الانطباعات .. حانت منى نظرة إلى ساعتى فوجدتها الثانية صباحًا .. ومن باب مفتوح بعيد فى فندق (جيلمان) الذى فررت منه حالاً ، خرج حشد من الأشكال المريبة .. المصابيح تتمايل فى الظلام ، وأصوات متحشرجة مفزعة تتبادل الصراخ بلغة ليست الإنجليزية حتمًا ..

كانوا يتحركون دون اتجاه معين ، وسرنى أنهم لا يعرفون مكانى ، لكن هذا لم يمنع قشعريرة قوية اجتاحت عمودى الفقرى .. لم أتبين وجوههم لكن مشيتهم العرجاء المخيفة كانت بالتأكيد منفرة .. والأسوأ أننى تبينت أن أحدهم يرتدى روبًا غريبًا ، ويلبس عمامة عالية لها طراز لا تخطئه العين ..

أصابنى الذعر من أن يجدونى هنا ، وكانت رائحة السمك لا تطاق ، حتى إننى تمنيت ألاّ يغشى علىَّ ...

* * *

مشيت سريعًا وبخفة جوار البيوت الخربة ، أشعث أغبر بعد تسلقى الشاق .. لم يبد منظرى جديرًا بالملاحظة ، وهكذا كانت لدى فرصة لا بأس بها فى الفرار لو قابلت أى عابر سبيل ..

وعند شارع (بيتس) مررت بشبحين يمشيان الهوينى ، ووصلت إلى مساحة خاوية لم أرها من قبل .. لكنها بدت لى خطرة لأن القمر سيلهو كما يشتهى هناك .. لكنى لم أملك سوى عبورها فى جرأة وثقة لأن البدائل الأخرى قد تكون أخطر .. السبيل الأوحد أن أعبرها مقلدًا مشية أهل (إينزماوث) المتثاقلة ، وأثق فى أن واحدًا من مطاردى ليس هناك ..

لم يكن هناك أحد كما توقعت ، برغم أننى سمعت نوعًا من الزئير يتزايد باتجاه ميدان المدينة .. كان الشارع متسعًا جدًّا يقود إلى مساحة شاسعة أمام الساحل ، وتمنيت ألاَّ ينظر أحد إلى البحر فى هذا الوقت بينما أعبره فى ضوء القمر ...

لم يعق شىء تقدمى ، ولم تبد علامة معينة على أن هناك من يرانى الآن ..

وبعيدًا فى ضوء القمر رأيت الخط الأسود الكئيب المميز لـ (شراع الشيطان) .. تذكرت كل الأساطير التى نسجت حوله فى الأربع والثلاثين ساعة الماضية ، وأساطير تصور هذه الصخرة كبوابة إلى عوالم الرعب والشذوذ ..

ثم - دون إنذار - رأيت وهج الضوء المتقطع فوق الصخرة النائية ، وكانت مؤكدة لا شك فيها .. فتحرك خوف أعمى فى أعماقى .. خوف لم أخبره من قبل ..

ولتزداد الأمور سوءًا التمعت أضواء من بيت (جيلمان) عبر الشمال خلفى .. كانت مماثلة لكنها مختلفة التزامن ، بما يعنى أنها ليست سوى إشارات ضوئية للإجابة ..

سيطرت على رجفتى ، ومن جديد استعدت الشعور بمدى انكشافى .. واستعدت مشيتى المتثاقلة ، وإن أبقيت عينى على الصخرة الشيطانية الجاثمة

وسط البحر .. لم أتخيل معنى هذا الذى يحدث ، ما لم يكن طقسًا ما يمارسونه عند (شراع الشيطان) ، أو أن مجموعة ما قد نزلت من قارب عند تلكم الصخرة .

هنا فقط داهمنى أكثر الانطباعات إفزاعًا .. الانطباع الذى دمر آخر بقايا سيطرتى على نفسى ، وجعلنى أركض جنوبًا أمام أبواب البيوت الخربة الفاغرة ، والنوافذ الشاخصة لذلك الشارع الكابوسى ..

ذلك أن نظرة إلى المسافة الخالية التى أضاءها القمر ، ما بين الصخرة والمنارة جعلتنى أعرف أنها ليست خاوية .. كانت تعج بالحركة ، وبكائنات تسبح نحو المدينة ، وحتى من هذه المسافة القصية كنت أدرك أن شكل الرءوس والأذرع شاذ منفر بما يفوق الإدراك ..

توقفت عن الركض قبل أن أنهى مربعًا عمرانيًا ، لأننى عن يمينى سمعت ما يشبه صرخات بحث منظم .. كانت هناك خطوات وصوت محرك يهدر عبر الشارع الرئيسى .. وفى ثانية تبدلت كل خططى .. لو كان الجنوب مغلقًا فعلىَّ العثور على طريقة أخرى للفرار من (إينزماوث) ..

إنهم لم يجدونى ولا يعرفون أين أنا ، لكنهم ينفذون خطة عامة تقضى بقطع الطريق علىَّ .. ومعنى هذا أن كل مخارج البلدة محاصرة .. علىَّ إذن أن أبتعد عن الطرق ، لكن كيف أفعل هذا والمدينة محاطة بالمستنقعات ؟ هنا فكرت فى خط السكة الحديد العاطل الذى كسته الأعشاب .. إنه شبه مستحيل ، وهذا سيبعده عن تفكير القوم .. للأسف هو واضح تمامًا ويمكن رؤيته من أى موضع عال بالمدينة ، لكن بوسعى أن أزحف دافنًا جسدى وسط الأعشاب العالية .. خطة واهية لكنها الوحيدة وليس لدى سواها ..

وعلى ضوء الكشاف أعدت دراسة الكروكى الذى رسمه لى صبى البقالة ، لأعرف كيف أصل إلى هذا الخط من هنا .. وبدأت الزحف فى الظلام ، وعبرت شارع (لافاييت) الخالى ، شاعرًا بالاختناق بسبب تزايد الرائحة السمكية الكريهة ..

ومن بعيد رأيت ثلاثة من تلك الأشكال تقف عند شارع (إبويتش) .. واضح أنهم يقطعون علىَّ الطريق ، وكان أحدهم يرتدى معطفًا طويلاً وعلى رأسه ما يشبه التاج الطويل يلتمع فى ضوء القمر .. وكانت مشيته مما أرسل القشعريرة فى عروقى ، لأن ذلك المخلوق كان يتواثب فعلاً ..

بعدما انصرفوا ، واصلت مسيرتى .. كان الجزء الأخطر هو عبور شارع (لافاييت) الخالى ، الذى غمره ضوء القمر . هنا يمكن بسهولة أن يرانى أحدهم .. وهكذا قررت أن أنحنى للأمام وأمشى ذات المشية المتثاقلة التى يمشونها ..

الآن صار البحر عن يمينى ، ونظرت إليه بطرف عينى ، فرأيت قاربًا بمجداف مليئًا بأشياء مغطاة بالمشمع .. وكان المجدفون ـ برغم بعد المسافة ـ لهم صفة منفرة ما .. وفى البحر كان عدد من السابحين ، بينما الضوء الأصفر الخافت يتوهج فوق (شراع الشيطان) .. وهب نسيم شفيق بدد الرائحة الزفرة قليلاً ثم عادت من جديد بصورة أكثر كثافة ..

رأيت من جديد مجموعة من هذه الكائنات عن بعد ، وكان أحدهما يضع عمامة عالية ، فأدركت أننى رأيتهم من قبل .. للحظة نظر فى اتجاهى فتصلبت وبدأت أمشى متثاقلاً أكثر .. لا أعرف حتى اليوم إن كانوا قد رأونى أم لا ، فإن كانوا قد فعلوا فلابد أن استراتيجيّتى قد خدعتهم .. لقد واصلوا مسيرتهم فى ضوء القمر محدثين أصواتهم الكريهة ..

فما إن غادرت هذه البقعة الخطرة حتى واصلت الركض كالثعالب ، بين عيون وأفواه البيوت الخالية ..

خرج رجل من بين أحد المنازل فتصلبت .. لكنى أدركت أنه ثمل جدًا مما لا يشكل خطرًا علىّ .. وهكذا وصلت إلى نهاية شارع (بانك) حيث خرائب المستودعات العتيقة ..

الآن صار صوت تدفق المياه قادرًا على حجب صوت خطواتى .. ووصلت إلى محطة القطار المهجورة الغارقة فى الظلام ، فمشيت مسرعًا قاصدًا الوصول إلى القضبان عند خلفيتها ..

كانت القضبان صدئة لكنها سليمة ، وكان المشى أو الركض فوقها عسيرًا لكنى حاولت ، واستغرقت وقتًا لا بأس به .. ولمسافة لا بأس بها ظللت أمشى ، ثم وصلت إلى نقطة تعبر فيها القضبان جسرًا على الهاوية وعلى ارتفاع مخيف .. كانت



فما إن غادرت هذه البقعة الخطرة حتى واصلت الركض كالثعلب ، بين عيون وأفواه البيوت الخالية ..

حالة هذا الجسر هى ما سيحدد خططى .. لو كان يتحملنى سأعبره ، ولو لم يكن فعلىَّ أن أخاطر بالعودة إلى الشوارع إلى أن أعبر الجسر فوق الطريق السريع ..

كان الجسر العتيق يلتمع فى ضوء القمر ، ووجدت أن الوصلات آمنة على الأقل لمسافة بضعة أقدام .. أخرجت كشافى ومشيت ، وكدت أهوى بسبب سحابة الوطاويط التى أحاطت بى ..

وعند منتصف المسافة كانت هناك ثغرة خفت أن تعوقنى .. ثم فى النهاية جازفت بقفزة يائسة نجحت لحسن الحظ ..

وشعرت بسرور حين رأيت ضوء القمر من جديد بعد هذا الممر الرهيب .. هنا تبدأ القضبان فى عبور منطقة ريفية تمتاز باندحار رائحة السمك المنفرة .. وقد راحت الأعشاب تعوقنى ، والشجيرات تمزق ثيابى بقسوة ، لكننى كنت سعيدًا بوجودها لأنها توارينى عن الخطر ..

بدأت منطقة المستنقعات ، ثم وصلت لجزيرة ذات أرض مرتفعة نسبيًا .. وكانت الأشجار عالية خانقة ، ومن جديد سرنى هذا لأن طريق (راولى) كان الآن قريبًا جدًا وبشكل خطر ، حسب ما رأيته من نافذة الفندق ... لن يدوم هذا طويلاً لكن علىَّ الآن أن ألتزم أشد الحذر ..

على الأقل كنت أعرف الآن أن السكة الحديد غير مراقبة ...

نظرت للوراء فلم أر من يقفون أثرى .. كانت بيوت (إينزماوث) تتلألأ بجمال فى ضوء القمر ، وفكرت كم كانت رائعة فى الماضى قبل أن يسقط الظل فوق المدينة .. ثم توقفت عينى أمام مشهد أقل جمالاً ..

كان ما رأيت أو حسبت أننى رأيت ، هو انطباع مقلق بحركة متموجة جنوبًا .. جعلنى هذا أستنتج أن حشدًا هائلاً يغادر المدينة عن طريق (إبزويتش) ..

كانت المسافة هائلة ، ولم أتبين تفاصيل ، لكنى لم أحب قط هذا المشهد .. هذا الشىء المتموج .. كان يتلوى كثيرًا جدًا ويتلألأ فى ضوء القمر الذى صار غريبًا الآن .. ثمة شىء كالصوت كذلك ، لكن الريح لا تساعدنى كثيرًا على تمييزه ..

وعبرت ذهنى تخمينات عديدة كلها غير سار .. تذكرت ما قالوه عن كائنات (إينزماوث) التى تعيش فى أنفاق قرب الساحل .. وتذكرت كل أولئك الباحثين عنى .. لو عددت كل هؤلاء لوجدت أن العدد الكلى يفوق بمراحل ما يمكن أن يوجد فى مدينة مهجورة مثل (إينزماوث) .. من أين جاء كل هؤلاء ؟ ربما من الأنفاق .. ومن أين جاء هذا الطابور المتموج الطويل الذى أراه الآن ؟ أتراه من هناك ؟ أم هو من سفينة أفرغت حمولتها عند ذلك النتوء الصخرى المقيت ؟ من هم ؟ لماذا هم هنا ؟

ضايقنى كذلك أن الرائحة السمكية التى نسيتها قد عادت تزداد قوة .. وثمة أصوات حلقية تتعالى من مكان ما ..

وهنا بدأ العفن والصوت يزدادان قوة .. وتوقفت راجفًا شاعرًا بامتنان لكونى بين الأشجار .. إن هذه هى النقطة التى يدنو فيها طريق (راولى) من السكة الحديدية أقصى دنو ، ثم يبتعد عنها متجهًا نحو الغرب .. ثمة شىء قادم وعلىَّ أن أقبع هنا وأنتظر حتى يبتعد .. حمدًا للّه على أن هؤلاء القوم لا يستعملون الكلاب فى البحث .. وعلى كل حال ما كانت الكلاب لتستطيع بسبب الرائحة القوية التى تفعم كل مكان ..

كنت أشعر بأمان حيث أنا ، برغم أننى أعرف أن مطاردىَّ سيعبرون القضيبين ، ربما على بعد مائة ياردة منى .. لكنهم لن يرونى بينما سأراهم أنا .. ما لم تحدث معجزة ما ...

كنت أرى المساحة الخالية فى ضوء القمر ، تلك التى سيعبرون منها .. وتوجست خيفة من المظهر الذى سيبدون به .. فى الغالب هم أسوأ أنماط (إينزماوث) مظهرًا .. شىء لا يحب المرء أن يتذكره ..

ازدادت الرائحة وتعالت الأصوات ، وكلها لاتحمل أدنى شبه بالكلام الآدمىِّ .. هل هذه حقًّا أصوات مطاردىَّ ؟ هل هم حقًّا لا يصحبون كلابًا ؟

قررت ألا أرى ، وأن أغمض عينى حتى تخفت الأصوات نحو الغرب ..

كان الحشد قريبًا جدًّا الآن .. الهواء ملوث بهم ، والأرض تهتز تقريبًا من وقع أقدامهم .. كاد تنفسى يتوقف وركزت إرادتى كلها فى أن أبقى عينى مغلقتين .. ليس بوسعى الآن أن أقول إن كان

ما رأيته حقيقة مريعة أم هلوسة كابوس لا أكثر .. فيما بعد ستؤكد الحكومة ـ بعد استجابتها لمناشداتى ـ أن هذه حقيقة مفزعة ، لكن أليس بوسع الهلاوس أن تتكرر بفعل السحر المدوخ لهذه المدينة العتيقة المسكونة ؟ إن لهذه الأماكن خواصً قوية .. أليس ممكنًا أن جرثومة جنون معد تكمن فى أعماق ذلك الظل فوق (إينزماوث) ؟ من بوسعه أن يتأكد من الحقيقة بعد سماع قصة العجوز (زادوك ألن) ؟ إن رجال الحكومة لم يجدوا الرجل قط ، وليست لديهم أية فكرة عما حدث له .. فأين ينتهى الجنون وتبدأ الحقيقة ؟ هل من الممكن أن آخر مخاوفى لم تكن سوى ضلالات ؟

لكن لابد من أن أخبرك بما حسبتنى رأيته فى تلك الليلة تحت القمر الأصفر الساخر .. بالطبع

كانت نيتى فى إبقاء عينىَ مغلقتين قد فشلت تمامًا .. كان لابد أن تفشل .. إذ من يمكنه أن يربض ضريرًا بينما فيلق من الكائنات الصاخبة مجهولة الأصل ، يمر على مسافة أقل من مائة ياردة منه ؟

كنت متأهبًا للأسوأ وكان يجب أن أكون كذلك بالنسبة لما رأيته من قبل .. لقد كان من يقتفون أثرى غير طبيعيين .. أفلا أتوقع إذن زيادة فى عنصر اللاطبيعية هذا ؟ أن أرى أشكالاً لا أثر فيها لما هو طبيعى على الإطلاق ؟

لم أفتح عينىَ حتى دنا الصخب الأجش من نقطة أمامى .. عرفت أن أكثرهم باد للعيان الآن وهم يعبرون القضيبين .. لم أستطع أن أكبح نفسى من رؤية المشهد الرهيب الذى سيرينى إياه هذا القمر الخبيث .. وكانت هذه هى النهاية لسلامى العقلى واطمئنانى إلى فهم توازن الطبيعة ..

ما كان لشىء تخيلته .. ما كان لشىء فهمته ـ لو أننى صدقت حكاية (زادوك) المجنونة حرفيًا ـ ما كان لهذا أن يقارن بالحقيقة الشنيعة الشيطانية التى رأيتها .. أو التى حسبت أننى رأيتها ..

هل حقًا أنجب كوكبنا أشياء كهذه ؟ ما الذى لا يوجد إلا فى الأساطير والخرافات حقًا ؟

لكننى رأيتهم بعينى يتواثبون ويزحفون وينقون عبر المساحة الخاوية فى ضوء القمر .. كانوا يرتدون تلك العمامات المصنوعة من ذلك المعدن الذى لا أعرف له اسمًا ، وبعضهم يرتدى المعاطف .. ومن فى المقدمة يضع قبعة على الشىء المشوه الذى يفترض أنه رأس ..

أحسب أن لونهم الغالب كان أخضر رماديًا برغم أن بطونهم كانت بيضاء .. وكانوا زلقين يلمعون ، إلا أن ظهورهم كانت قشرية .. بشكل ما كانت

أجسادهم توحى بالبشر بينما رءوسهم تذكرك بالأسماك .. بعيون جاحظة لا ترمش أبدًا .. وعلى جانبى العنق كانت خياشيم تنبض ، وكانت أصابعهم المخلبية مزودة بأغشية ، وكانوا يتواثبون أحيانًا على يدين وأحيانًا على أربع ..

كانت أصواتهم نوعًا من النقيق والنباح يعوضون بها ما تفتقر إليه وجوههم من انفعالات .. وبرغم كل هذا لم يبد منظرهم غريبًا علىَّ .. ألم أكن أذكر منظر العمامة فى (نيوباريبورت) ؟ إنهم الضفادع ـ الأسماك .. وقد فهمت الآن سبب هلعى من ذلك الكاهن بالعمامة ، الذى رأيته فى تلك الكنيسة السوداء ، وعرفت بم ذكرنى منظره ..

وكان عددهم يفوق التخمين .. بدا لى أن هناك حشودًا بلا نهاية منهم .. والمشكلة

هى أننى لم أكن أرى سوى جـزء بسـيط مـن جموعهم ..

وفى النهاية جـاءنى الإغمـاء الرحيم .. وكـان هذا أول إغماء أعرفه فى حياتى ...

5

كان هذا هو مطر النهـار الرهيف الذى أيقظنى مـن نعاسـى بين الشـجيرات التـى تغطـى السـكة الحديدية .. وحين نهضت إلى الطريق لـم أر أثـرًا لآثار أقدام فى الوحل ..

لقد ولت كذلك الرائحة السمكية . ومن بعيد كنـت أرى أسـقف (إينزمـاوث) وخرائبهـا ، لكـن بلامخلوق حى واحد فى المستنقعات المحيطة بى ..

كانت ساعتى سليمة وقالت لى : إن الوقت نحـو الظهيـرة .. كانت حقيقـة ما مررت به غيـر أكيـدة فى ذهنى لكنى أدركت أن شيئًا مريعًا ينتظر ، وأن علىَّ الفرار سريعًا من (إينزماوث) ..

وبرغـم الخـوف والجـوع والوهـن والحيـرة ؛

وجدت أننى قادر على المشى .. فبدأت أمشى عبر الطريق الموحل ..

وعند المساء كنت فى قرية ، ألتهم وجبة ساخنة وأرتدى ثيابًا لائقة.. ركبت قطار المساء إلى (آرخام) ، وفى اليوم التالى تحدثت جديًّا وطويلاً مع رجال الحكومة .. وهو شىء كررته بعد هذا فى (بوستون) .. والناس الآن تعرف ما حدث بالضبط .. وقد تمنيت ـ من أجل سلامة الأمور ـ لو لم يكن لدىَّ ما أضيفه إلى القصة ..

ربما كان الجنون هو ما يتملكنى .. وربما كان الذعر العظيم .. أو ربما أعجوبة أعظم تمد يدها لى ..

كما يمكن أن تتخيل ، تخليت عن أكثر أهداف رحلتى .. العلم .. المعمار .. الأنتيكات التى اعتمدت

عليها كثيرًا .. لكننى أثريت زيارتى لـ (آرخام) عن طريق بعض دراسات النسب التى طالما تقت لعملها .. معلومات خام عجول حقًّا ؛ لكنها تصلح للاستفادة منها يومًا حين أجد الوقت لتنسيقها ..

كان مستر (ب . لافام بيبودى) ـ وهو القيِّم على الجمعية التاريخية هناك ـ حريصًا على مساعدتى ، واهتم كثيرًا جدًّا حين أخبرته أننى حفيد (إليزا أورن) من (آرخام) التى ولدت عام 1876 ، وتزوجت من (جيمس ولیامسون) من (أوهايو) وعمرها سبعة عشر عامًا ..

يبدو أن خالاً لى كان هنا منذ أعوام ، وأجرى بحوثًا مماثلة لما أقوم به ، ويبدو أن أسرة جدتى كانت موضع اهتمام محلى ما ..

قال مستر (بيبودى) إن مناقشات عديدة قد دارت حول زواج أبيها (بنيامين أورن) بعد الحرب

الأهلية .. إن سلالة العروس غير محددة بالضبط ، بالرغم من أنه يقال إنها من آل (مارش) فى (نيوهامبشاير) .. وهم يمتون بصلة لآل (مارش) فى مقاطعة (إسكس) جنوبى انجلترا . وقد تعلمت العروس فى فرنسا فى بداية حياتها ، وقد ترك لها وصى ما مبلغًا من المال لتغطية نفقاتها هى ومربيتها .. ثم اختفى فتولت المربية تربية الطفلة .. وكانت المربية الفرنسية صموتًا غامضة ..

ولقد عجز الجميع عن تحديد نسب أبوى الفتاة بين أسر (نيوهامبشاير) .. بالواقع كانت لديها عينا آل (مارش) المميزتان .. وقد توفيت فى سن مبكرة بعد ما أنجبت جدتى .. طفلتها الوحيدة ..

ولما كان اسم (مارش) قد صار مرتبطًا فى ذهنى بأشياء غير سارة ، فإننى لم أحب كثيرًا أن أجد اسم (مارش) فى نسبى ، كما لم أحب أيضًا ما قال الرجل من أننى أنا نفسى أحمل عينى (مارش) ..

وبرغم كل هذا دونت كل شىء بعناية ، وعدت إلى (توليدو) من (بوستون) وأمضيت شهرًا فى (مومى) على سبيل الاستشفاء من آثار المنحة .. وفى سبتمبر دخلت (أوبرلين) لأنهى عامى الدراسى الأخير ، ومن وقتها حتى (يونيو) انشغلت بالدراسة ، ولم يذكرنى بأحداث الصيف إلا زيارات من موظفى الحكومة يستوثقون من تفاصيل قصتى التى حكيتها ..

وفى يوليو أمضيت بعض الوقت مع أسرة والدتى المرحومة فى (كليفلاند) ، وكنت أراجع بعض معلوماتى الخاصة بالنسب .. وأحاول رسم شجرة متماسكة .. فى الواقع لم أتم هذه المهمة قط لأن جو دار (ويليامسون) كان يثير اكتئابى .. وما كانت أمى ترحب بأن أزور والديها فى طفولتى ، برغم أنها كانت تبرهما حقًا .. كنت أجد جدتى المولودة فى (آرخام) مخيفة غريبة

ولا أحسبنى حزنت حين اختفت .. كنت فى الثامنة من عمرى وقتها ، وسمعت أنها جنت بسبب انتحار عمى (دوجلاس) أكبر أبنائها .. وكان قد فعلها بعد رحلة قام بها إلى (نيو إنجلند) ..

كان عمى يشبهها ، ولم أكن أحبه كذلك .. ثمة شىء مخيف فى عيونهم الثابتة التى لاتطرف ..

جعلتنى مراجعة الصور والوصايا أشعر بذعر بالغ .. كما قلت كانت جدتى وعمى (دوجلاس) يزعجانى كثيرًا ، والآن رحت أرمق صورهما شاعرًا باغتراب ونفور جمّين .. لقد بدأ نوع رهيب من المقارنة يفرض نفسه على لا وعيى برغم رفض الوعى لهذا .. كان من الواضح أن تعبير وجهى هذين يوحى بشىء لم أعرفه من قبل .. شىء سيثير هلعى لو أمعنت التفكير فيه ..

ازداد الهلع حين أرانى خالى مجوهرات الأسرة المحفوظة فى مصرف المدينة .. كان هناك

صندوق غريب عتيق .. قال لى إنه يحوى مجوهرات عجيبة الشكل لم يرتدها أحد أمام الناس قط على حد علمه .. وبرغم أن جدتى كانت تحب النظر إليها ، فإن سمعة النحس التى تلاحق هذه المجوهرات كانت قوية ..

وبدأ خالى يفتح الصندوق ببطء واشمئزاز ، ونصحنى ألا أصدم بالتصميم الشاذ المخيف لهذه المجوهرات .. إن صائغى المجوهرات الذين رأوا هذه لم يستطيعوا معرفة مم صنعت ، ولا من أية ثقافة جاءت ..

كانت عمامة وسواران ، وهنا لم أستطع التحكم فى ملامح وجهى وأنا أرمق هذه الأشياء ، حتى إن خالى تصلب ليرى ما دهانى .. كان مافعلته وقتها مثيرًا لدهشته ، وأثار دهشتى كذلك : لقد غبت عن الوعى بسهولة كما حدث من قبل فوق السكة الحديدية ..

* * *

ومن يومها غدت حياتى كابوسًا من التوجس .. ولم أعد أعرف أى جزء هو الحقيقة وأى جزء هو الجنون .. كانت جدتى الكبيرة من نسل (مارش) ما ، لا يعرف أحد أصلهم ، وكان زوجها من (آرخام) .. ألم يقل (زادوك) العجوز : إن ابنة (أوبد مارش) من شيطانة البحر قد تزوجت من رجل ساذج من (آرخام) ؟ ألم يقل : « إن لك عينين حادتين قارئتين كعينى (أوبد) » ؟ ألا يعنى هذا أن (أوبد مارش) هو جدى الكبير ؟ فمن - أو ما - تكون جدتى الكبيرة إذن ؟!

ولربما كان الأمر جنونًا .. ربما كانت مغامرة (إينزماوث) قد صبغت خيالاتى .. ولكن لماذا قتل خالى نفسه بعد ما عرف شجرة نسبه فى (نيو إنجلند) ؟

ولمدة عامين حاربت هذه الأفكار ونجحت نجاحًا جزئيًا .. وجد لى أبى عملاً فى شركة تأمين ، فدفنت نفسى فى العمل قدر الإمكان ..

وفى خريف 1930 بدأت الأحلام .. كانت نادرة فى البداية ، ثم ازدادت قوة مع الوقت .. مساحات مائية شاسعة انفتحت أمامى .. كنت أسبح وسط متاهات جدرانها من أعشاب البحر ، تصحبنى أسماك غريبة الشكل .. ثم بدأت الأشكال الأخرى تظهر .. تفعمنى برعب لا يسمى فى اللحظة التى أفيق فيها .. لكننى فى الحلم كنت منهم .. ألبس ما يلبسون وأسبح مثلهم ، وأردد عبارات بلغتهم فى معابدهم المائية ..

وكان ما أذكره حين أصحو جديرًا بأن يصمنى بالجنون أو بالعبقرية لو جسرت على كتابته .. وتدهورت حالتى الصحية والنفسية مع الوقت ، حتى تركت وظيفتى وعشت حياة منعزلة ثابتة لشخص لا نفع منه .. أصابنى مرض عصبى غريب كذلك جعلنى فى أوقات بعينها عاجزًا عن إغماض عينى .

وهنا بدأت أدرس وجهى فى المرايا مذعورًا .. لقد لاحظ أبى الشىء ذاته لأنه كان يتأملنى من حين لآخر فى تأمل وتهيب ..

ماذا يحدث لى ؟ هل أنا فى الطريق لأن أشبه جدى وجدتى ؟ ذات ليلة حلمت بأننى قابلت جدتى تحت الماء ..كانت تعيش فى مكان فسفورى له شرفات عديدة ، وحديقة من الشعاب المرجانية .. رحبت بى بحرارة شبه ساخرة .. كانت قد تغيرت تمامًا ككل من يرحلون إلى البحر أخيرًا.. قالت لى إنها لم تمت لأن عمرها طويل جدًا .. وأنا سألحق بها .. سأعيش مع هؤلاء الذين عاشوا قبل أن تطأ قدم إنسان الأرض ..

قابلت جدتها كذلك .. منذ ثمانين ألف عام كانت (بتهتهياليا) تعيش فى (يها نتلى) .. لم تمت حين أطلق الأرضيون الموت على البحر .. إن

سكان الأعماق لا يموتون بسهولة .. هم الآن يستريحون لكنهم سينهضون يومًا من أجل ما يحلم به (كتولو) العظيم .. والمدينة القادمة ستكون أكبر وأهم من (إينزماوث) .. إن علىَّ كفارة مهمة لأننى جلبت رجال الموت الأرضيين إلى (إينزماوث) ، لكنها لن تكون ثقيلة الوطء ..

وفى الصباح رأيت فى المرآة بوضوح أننى اكتسبت سحنة (إينزماوث) ..

وكما فعل خالى ابتعت مسدسًا وكدت أفعلها ..

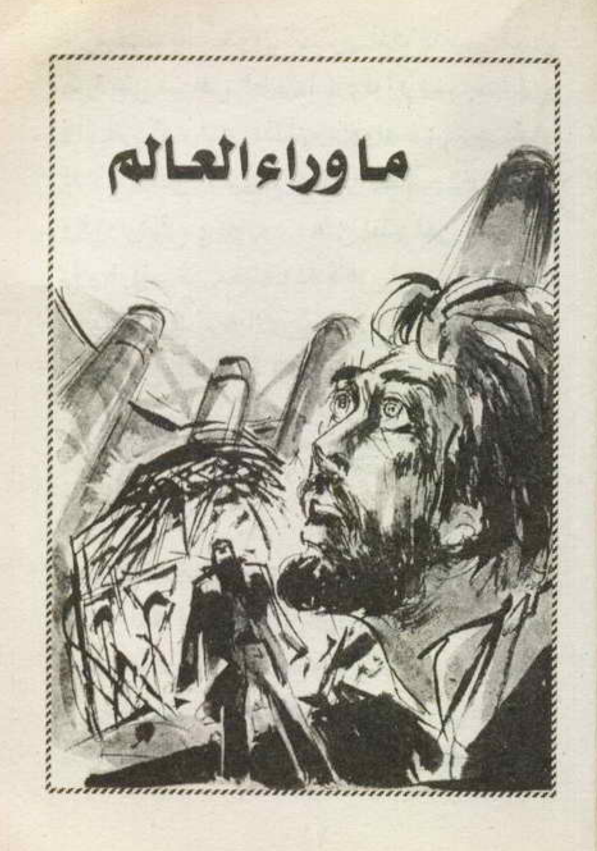
لكن أحلامى فى الأيام التالية صارت أكثر جاذبية ، وصرت منجذبًا للبحر ولا أهابه .. الآن لا أحسب أن علىَّ الانتظار كما فعل من سبقونى .. ولو انتظرت لحبسنى أبى فى مصحة عقلية للأبد . إن الروائع تنتظرنى تحت المحيط ولن أنتظرها ..

لا رلياهل سيهويهل فلجانجل دا لا .. لا .. لن

أطلق الرصاص على رأسى .. لن أفعل أبدًا سأذهب إلى (إينزماوث) التى يغطيها الظل .. الظل الساحر ..

سأسبح حتى (شراع الشيطان) وأغطس عبر الأعماق المظلمة حتى أصل إلى (يها نتلى) ، وهناك فى جحر سكان الأعماق سأعيش وسط المجد والروعة للأبد .

1936



مخيف بما يفوق التصور ذلك التغيير الذى طرأ على صديقى العزيز (كروفورد تلنجاست) . ولم أكن قد رأيته منذ شهرين ونصف الشهر قبل ذلك ، حين أخبرنى بهدف أبحاثه الفيزيائية والخوارقية ، وحين رد على احتجاجى المذعور بأن طردنى من معمله وداره فى غضب مجنون . وكنت أعرف أنه الآن يمضى الوقت فى معمله بالعلية مع تلك الآلة الكهربية المقيتة ، يأكل أقل القليل ، ويمنع دخول حتى الخدم . كنت أعرف هذا لكنى لم أتوقع كل هذا التبدل خلال عشرة أسابيع .

ليس مما يسر أن ترى رجلاً متين البنيان وقد صار ناحلاً ، والأسوأ أن ترى جلده المتهدل وقد صار أصفر أو بنيًا ، والعينين غائرتين تلتمعان ، وأوردة الجبين مجعدة بارزة واليدين ترتجفان . ولو أضفت لهذا شيئًا أقول إنه ذلك المظهر العام

غير المهندم ، وشعر بدأ يشيب عند الجذور ، ولحية غير حليقة . كان هذا هو منظر (كروفورد تلنجاست) فى تلك الليلة التى جلبتنى فيها رسالته المضطربة إلى بابه بعد ما طردنى من هناك .. كان هذا هو الشبح الذى راح يرتجف وهو يقودنى للداخل ، وشمعة فى يده وهو ينظر من حين لآخر من فوق كتفه ، كأنما يخشى أشياء لا ترى فى المنزل .

كان من الخطأ أساسًا أن يدرس (كروفورد تلنجاست) العلم والفلسفة ، فهى أشياء المفترض أن تترك للباحثين الباردين قليلى الانفعال ، أما بالنسبة للرجل ذى الأحاسيس المرهفة ، فهى أشياء تسبب نتيجتين مأساويتين : إما القنوط لو فشل فى أبحاثه ، أو الأهوال التى لا يصدقها عقل لو نجح . وقد كان (تلنجاست) من قبل فريسة الفشل والإحباط ، لكنى أعلم الآن والمخاوف

تغمرنى أنه فريسة النجاح . لقد أنذرته من مغبة تجاربه منذ عشرة أسابيع ، حين أخبرنى بما شعر بأنه مقبل على اكتشافه . كان يتحدث فى حماسة بصوت عال غير معتاد قائلاً :

- « ما الذى نعرفه عن العالم والكون من حولنا ؟ إن سبلنا للمعرفة قليلة بشكل مروع ، وإنطباعاتنا عن الأشياء المحيطة ضيقة بما لايقاس .. إننا نرى الأشياء بالطريقة التى يفترض منا أن نراها بها ، وليست لدينا فكرة عن طبيعتها المطلقة . بخمس حواس واهنة نحسب أننا قادرون على استكشاف الكون المعقد غير المحدود . على حين تستطيع كائنات أخرى لها حواس أقوى أو تختلف عن حواسنا أن ترى عالمًا غير متناه من الطاقة والحياة ، تلك الأشياء التى توجد على بعد ياردات منا لكننا لا نقدر على رؤيتها بحواسنا .. إن لدىَّ يقينًا كاملاً أن عوالم

كهذه موجودة .. والآن بلا مزاح أقول : إننى أستطيع أن أهشم هذه الحواجز .. بعد أربع وعشرين ساعة ستعمل هذه الآلة ، ولسوف توقظ موجاتها عضو إحساس مجهولاً يكمن فينا كبقايا تشريحية لا نعرف وظيفتها .. لسوف نرى ما يجعل الكلب ينبح فى الظلام ، وما الذى يجعل القطط تحك آذانها بعد منتصف الليل .. لسوف نبصر هذه الأشياء وأشياء أخرى لم يرها مخلوق يتنفس من قبل .. سنخترق الزمن والأبعاد وندنو من السر .. »

حين قال (تلنجاست) هذا احتججت ، لأننى أعرفه بما يكفى كى يجعلنى مذعورًا لا مستمتعًا ، لكنه كان مجنونًا وطردنى من داره كما قلت .. الآن هو ليس أقل جنونًا لكن رغبته فى قدومى قد تغلبت على استيائه ..

وإذ دخلت دار الصديق الذى تبدل فجأة إلى

غول يرتجف ، أصابتنى عدوى الذعر الذى كان يتوارى فى الظلال . إن ما قاله منذ عشرة أسابيع بدا لى الآن مجسدًا فى تلك الدائرة المظلمة خارج ضوء الشمعة وتمنيت لو كان الخدم دانين ، ولم أحب ما قاله حين ذكر أنهم رحلوا جميعًا منذ ثلاثة أيام .. بدا لى غريبًا أن يرحل (جريجورى) العجوز دون أن يخبر صديقًا موثوقًا به مثلى .. لقد كان هو من زودنى بأخبار (تلنجاست) بعد ما رحلت مطرودًا من داره .

كنت أحاول تخمين ما يريده منى (تلنجاست) ، وإن كنت واثقًا من أن لديه سرًا رهيبًا . وعبر خواء المنزل المظلم تبعث الشمعة المتراقصة فى يد الرجل المرتجفة . بدا أن التيار الكهربى مقطوع ؛ وحين سألته عن ذلك قال : إن هذا لسبب محدد . وأضاف مغمغمًا :

- « سيكون هذا أكثر من اللازم .. وهو شىء لا أجرؤ عليه »

دخل معمله فى العلية ، وكانت الآلة الكريهة هناك تلتمع ببريق بنفسجى مشئوم . كانت متصلة ببطارية قوية لكن بدا أنها لا تتلقى أية كهرباء ، لأنى أذكر أنها كانت تهدر فى أثناء العمل فيما سبق . وقال لى (تلنجاست) إن هذا البريق ليس كهربى المصدر كما أتخيل .

أجلسنى قرب الآلة حتى صارت عن يمينى ، وحرك محولاً ما تحت الصمامات الزجاجية ، فبدأ الصخب المعتاد واستحال عواءً ثم انتهى إلى طنين ناعم يوحى بالعودة إلى الصمت .. فى الوقت ذاته ازداد التألق ثم استحال خليطًا من الألوان لا أقدر على وصفه ..

كان (تلنجاست) يراقبنى ولاحظ دهشتى ، فهمس :

- « هل تعلم ما هذا ؟ إنه الأشعة فوق

البنفسجية .. كنت تحسبها لا تُرى .. وهـى كذلـك فعلاً لكنـك تستطيع الآن أن تراهـا وأشياء خفيـة أخرى ..

« أصـغ إلى .. إن الموجـات المنبثقـة مـن هذا الشىء توقظ آلاف الحواس الغافية فينا .. حواس ورثناها من عهد الإلكترونات المستقلة حتى وصلنا إلى عهد الكـائن العضوى المتكـامل .. لقد رأيت الحقيقـة وإنى أزمـع أن أريـك إياهـا .. ألا تتساءل كيف تبدو ؟ »

وهنا أطفأ الشمعة وجلس أمامى وأردف :

ـ « إن حواسك الموجودة ـ وأولها الأذن ـ ستلتقط أول الانطباعات لأن السمع أقرب الحواس إلى الأعضـاء النائمة ، ثم تأتى الحـواس الأخـرى .. هل سمعت عن الجسم الصنوبرى ؟ إننـى لأسخر مـن أطبـاء الغدد الصماء الضحلين ومن علماء النفس الجهلة .. إن هذه الغدة لهى أهم عضـو حسى فى الجسـد ..

لقد اكتشفت هذا .. وبوساطتها ترى ما وراء هـذا العالم .. »

نظرت حولى لأرى الغرفة قد أضاءتها إشعاعات لا تراها عيوننا عـادة ، واتخذ المكـان كلـه وهمًا ضبابيًـا أخفـى طبيعتـه ، وتـرك البـاب مفتوحًـا للخيالات والترميز . وإذ صمـت (تلنجاست) رأيت نفسى فى معبد واسع مذهل .. صرح غامض مـن الحجر الأسود يرتفع شامخًا فوق أرضية من البـلاط المبتل إلى ما بين السحب بعيدًا عن حـدود بصـرى .. كـانت الصـورة جليـة تمامًـا لفتـرة ، ثـم أفسـحت الطريـق لرؤيـا أكـثر رهبـة .. لخـواء شاسـع فـى اللانهاية ولا شىء سواه .. وإنتابنى فزع طفولـى جعلنى أسحب المسدس من جيبى ..

ثم من أقصى أطراف البعد ولد الصوت بنعومـة .. كـان خافتًـا بمـا لا يقـاس ، فيــه نغمــة موسيقيـة

عسير أن تخطئها ، لكن كان فيه توحش قاهر جعل تأثيره كأنه تعذيب رقيق لجسدى .. وشعرت بأحاسيس كالتى يحسها المرء حين يخدش الزجاج المصنفر ..

وأدركت أن الصوت والريح يتزايدان ، وشعرت كأننى مربوط إلى القضيب أمام قطار عملاق يدنو منى .. بدأت أتكلم مع (تلنجاست) وإذ فعلت هذا راحت الصور التى رأيتها تتلاشى ..

كان (تلنجاست) يحدق فى نفور فى المسدس الذى أخرجته بلا وعى ، لكنى أدركت من ملامح وجهه أنه رأى قدر ما رأيت بل ربما أكثر ..

حذرنى قائلاً :

- « لا تتحرك .. إذ إننا فى هذه الأشعة نرى ونُرى .. لقد أخبرتك أن الخدم رحلوا لكنى لم أقل السبب .. إنها مدبرة المنزل الغبية تلك .. لقد

أضاءت الأنوار فى الطابق السفلى وكنت قد أنذرتها ألا تفعل ..والتقطت الأسلاك ذبذبة معينة لابد أنها كانت مفزعة .. وسمعت صراخها برغم كل ما كنت أراه هنا وأسمعه .. ثم وجدت ثيابها المبعثرة فيما بعد .. لقد كانت ثياب مسز (أبدايك) جوار مفتاح نور الصالة وهكذا عرفت ما فعلته .. لقد ظفر بهم جميعًا .. لكن طالما نحن لا نتحرك فإننا آمنان نوعًا .. تذكر أننا نتعامل مع عالم مفزع نحن فيه عاجزان تمامًا .. ابق ثابتًا ! »

شعرت بما يشبه الشلل ، وانفتح عقلى ثانية لاستقبال ما أسماه (تلنجاست) بـ (ما وراء العالم) .. كنت الآن فى دوامة من الأصوات والأضواء لكن حدود الغرفة مازالت موجودة ، وراحت سحب تغلى تخترق السقف وتحتشد أمامى .. كنت أرى المعبد من جديد لكن أعمدته كانت تمتد إلى محيط سماوى من الضوء .. ثم تلون المشهد وشعرت

وسط غمرة الأضواء والأصوات أننى أذوب أو أفقد الشكل الصلب ..

ولسوف أذكر بالذات ما بدا كليل غريب تملؤه كريات مضيئة دوراة ، ثم أدركت أن الشموس البراقة تتخذ شكل الوجه المشوه لـ (تلنجاست) ، وللحظات أخرى كنت أرى أجسامًا عملاقة تصطدم بى لتعبر ما كان جسدى الصلب ..

وفجأة استحوذ علىَّ مشهد من الفوضى العامة التى برغم غموضها كانت تملك عناصر المنطقية والثبات .. وقد بدا لى المشهد مألوفًا لأنه كان منطبعًا على الخلفية الأرضية المعتادة ، كما تسقط صور السينما على ستار العرض .. لم يكن هناك موضع واحد خال فى المعمل ما بين الآلة ووجه (تلنجاست) والجدران ..

كنت أرى عالمًا كاملاً حيًا من الغرباء والكائنات

العجيبة ، وبدا لى كأن الأشياء المعروفة دخلت فى تكوين الأشياء غير المعروفة والعكس .. ومن بين الأشياء الأخيرة كان هناك أكثرها عددًا كائنات شبيهة بقناديل البحر ، تسبح بلا كلل ، وتهتز مع اهتزازات الآلة .. وكانت تجتاز الأجسام الصلبة وتخترق بعضها البعض .. وأحيانًا كان يلتهم بعضها البعض ، ولم أستطع أن أبعد تفكيرى عن الخدم البؤساء الذين ربما اختفوا بطريقة كهذه ..

وسمعت (تلنجاست) يقول :

ـ « هل تراها ؟ هل ترى الأشياء التى تكون ما يسميه الناس بالهواء النقى والسماء الزرقاء ؟ ألم أحطم الحاجز ؟ ألم أرك العالم الذى لم يره إنسان قط من قبل ؟ »

كان وجهه دانيًا من وجهى ، وعيناه حفرتى نار ، وفيهما ما تبينت الآن أنه مقت غالب ..

- « هل تحسب هذه الأشياء المتخبطة هى ما التهم الخدم ؟ أحمق ! إنها كانت بلا خطر .. لكن الخدم قد رحلوا ، أليس كذلك ؟ لقد حاولت أن تمنعنى .. أحبطتنى حين كنت أريد كل قطرة تشجيع ممكنة .. كنت خائفاً من الحقيقة الكونية يا جبان .. والآن ظفرت بك ! ما الذى قضى على الخدم ؟ ما الذى جعلهم يصرخون كل هذا الصراخ ؟ لسوف تعرف حالاً .. فقط انظر لى .. هل تحسب أن للزمن والقيمة معنى ؟ هل تحسب أن هناك ما يدعى بالشكل والمادة ؟ لقد اخترقت أنا ورأيت حدود اللانهاية واسبعدت الظلال التى تعبر من عالم إلى آخر لتبذر الموت والعدم .. إن الفضاء ملكى أنا .. هل تسمعنى ؟ ثمة أشياء تلاحقنى .. أشياء تلتهم وتذيب .. لكننى أعرف كيف أتفاداها .. كيف أجعلها تظفر بك كما ظفرت بالخدم .. هل تتحرك يا سيِّدى العزيز ؟ قلت لك

إنه من الخطر أن تتحرك .. لقد حافظت على حياتك حتى الآن بأن أمرتك ألا تتحرك .. ولو أنك فعلت لظفروا بك من زمن طويل .. لا تقلق.. هذا لا يؤلم ، وإنما صرخ الخدم بسبب الذعر مما رأوه .. إن تلك الكائنات المدلله تأتى من عالم لا تسرى فيه مقاييسنا الجمالية .. كنت أعرف دومًا أنك لست بالعالم يا صديقى .. لا تقلق .. إنهم آتون .. انظر ! انظر ! إنه فوق كتفك الأيسر .. »

وما بقى فى القصة مختصر جدًا ، وربما هو مألوف لمن قرءوا الصحف . لقد سمع رجال الشرطة طلقة رصاص من منزل (تلنجاست) العجوز ووجدونا هناك .. (تلنجاست) ميت وأنا فاقد الرشد . وقد اعتقلونى لأن المسدس كان فى يدى لكنهم أطلقوا سراحى بعد ثلاث ساعات بعدما

وجدوا أن نزف المخ هو ما قتل (تلنجاست) ، وعرفوا أن طلقتى كانت موجهة للآلة المؤذية التى تناثرت أجزاؤها الآن على أرض المعمل ..

لم أقل لهم كل ما رأيت ، لكن الطبيب الشرعى بعد ما عرف بعض التلميحات العامة ، قال إننى بالتأكيد كنت تحت تأثير تنويم مغناطيسى مارسه معى المجنون الحاقد ..

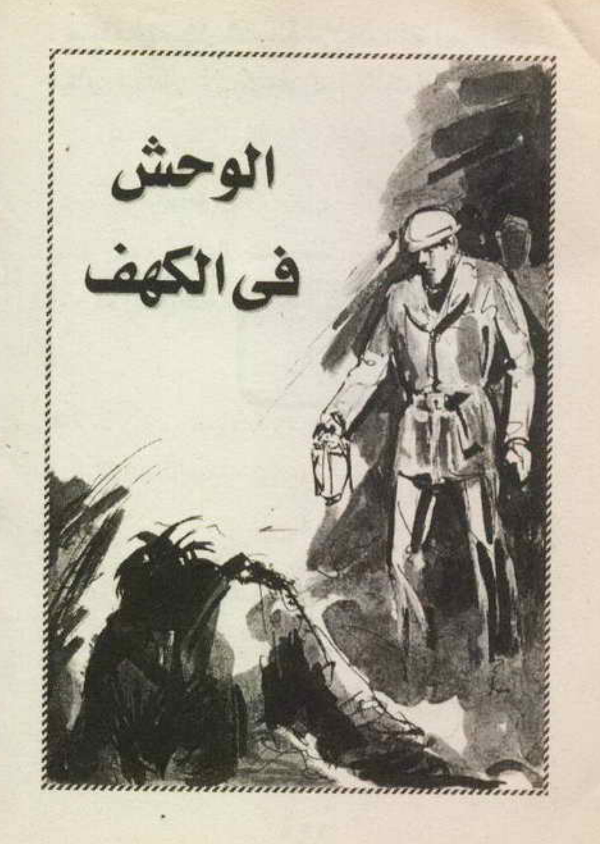
ليتنى أستطيع تصديق الطبيب .. إذن لساعد هذا أعصابى المرتجفة بسبب ما صرت أعتقد أنه الهواء والسماء من فوقى ..

لم أعد أستطيع التمتع بالوحدة أو بالراحة ، ودائمًا ما يطاردنى ذلك الشعور بالمطاردة والمراقبة كلما كنت متعبًا .. على أن السبب الوحيد الذى يمنعنى من طلب عون الطبيب هو

حقيقة أن رجال الشرطة لم يجدوا قط أجساد الخدم الذين يعتقدون أن (كروفورد تلنجاست) قد قتلهم .

كتبت عام 1920 ونشرت للمرة الأولى عام 1934

* * *



الاستنتاج المريع الذى بدأ يفرض نفسه على عقلى الحائر الكاره له ، قد صار الآن حقيقة مرعبة ..

لقد ضللت طريقى فى المتاهة الواسعة لكهف (الماموث) .

لا شىء يقع عليه بصرى المجهد فى أى اتجاه ، كى أستعين به علامة للخروج من هنا .. إننى لن أرى من جديد ضوء النهار المبارك ، ولا وديان العالم الجميلة بالخارج .

لم يعد عقلى يملك ترف أدنى شك .. لقد ولى الأمل ، وبرغم أننى تعلمت الفلسفة طيلة حياتى ، فإننى لم أنل أية ترضية من سلوكى العقلانى المتجرد . لأننى برغم أننى قرأت كثيرًا عن الجنون الذى قذف إليه الكثيرون ممن مروا بهذا الموقف اليائس ؛ فإننى لم أخبر شيئًا من هذا .. ووقفت هادئًا ما إن تبينت المأزق الذى وقعت فيه ..

ولا حتى فكرة أننى ابتعدت كثيرًا عن مجال أى بحث عادى عنى ، جعلتنى أتخلى عن رباطة جأشى ولو للحظة ..

لو كنت سأموت ، فهناك هذا الكهف المخيف، لكنه ساحر ، كأنه ضريح كالذى يمنحه لى أى فناء كنيسة .. وكان فى هذا التصور راحة أكثر من راحة اليأس ..

إن التضور جوعًا سيكون هو مصيرى النهائى .. كنت من هذا واثقًا .. البعض جن من نهاية كهذه لكنى شعرت بأن هذه ليست نهايتى ..

إن كارثتى ليست خطأ أحد سواى ، لأن الدليل لم يعرف أننى انفصلت عن مجموعة السائحين ، ومشيت بلا هدف نحو ساعة فى دروب محرمة من الكهف .. وعجزت عن متابعة الممرات الخادعة التى عبرتها منذ فارقت من كانوا معى ..

لقد بدأ مصباحى يخبو ، ولسوف تغلفنى سريعًا

ظلمات باطن الأرض الكلية التى توشك أن تكون ملموسة .. وإذ وقفت فى الضوء المحتضر المهتز ، تساءلت فى غباء عن الظروف التى سببت نهايتى القادمة ..

تذكرت القصص التى سمعتها عن مستعمرة مرضى السل التى اتخذت سكناها فى هذا الكهف العملاق ، طلبًا للصحة فى هواء عالم ما تحت الأرض .. بحرارته الثابتة المنتظمة ، وهوائه النقى ، وهدوئه .. وكيف لاقى القوم الموت بأغرب السبل وأشنعها ..

لقد رأيت البقايا المؤسية لأكواخهم غير متقنة الصنع إذ مررت بها مع المجموعة .. وتساءلت عن الأثر غير السوى الذى تحدثه الإقامة فى هذا الكهف الهائل الصموت فى شخص طبيعى مثلى .. والآن أقول لنفسى : إن فرصتى للتحقق من هذه النقطة قد جاءت ، بشرط ألا يؤدى الجوع إلى رحيلى العاجل من هذا العالم ..

وإذ ولت آخر الإشعاعات من مصباحى إلى الظلمة ، قررت ألا أترك بابًا لا أطرقه .. ولا وسيلة للنجاة دون أن أجربها .. ومستعينًا بكل قوة فى رئتى ، أطلقت سلسلة من الصرخات العالية ، على أمل أن أجذب انتباه الدليل بصخبى .. إلا أننى - وأنا أصرخ - كنت موقنًا من أن صرخاتى بلا جدوى ، وأن صوتى الذى تعكسه الجدران الحجرية حولى ، لن يصل إلى أذنين عدا أذنى ..

فجأة تركز اهتمامى إذ تخيلت أننى سمعت صوت خطوات ناعمة على أرض الكهف الصخرية .. أتكون نجاتى تحققت بهذه السرعة ؟ هل تكون كل مخاوفى بلا داع ، ويكون الدليل قد لاحظ اختفائى من بين المجموعة ، فتتبعنى وبحث عنى فى متاهة الحجر الجيرى هذه ؟

وبينما تلكم الخواطر السارة فى ذهنى ، كنت على وشك مواصلة الصراخ ثانية حتى يجدونى

أسرع ، حين استحال سرورى ذعرًا فجأة وأنا أصغى ..

لأن أذنى الحادة أبدًا - والتى شحذها الصمت التام فى الكهف - جعلتنى أميز فى رعب وغير توقع ، أن هذه الخطى ليست كخطى أى إنسان فان ..

وسط السكون الغريب لهذه البقعة تحت الأرضية ، فإن وقع قدمى الدليل بحذائه ذى الرقبة كان سيحدث ضربات قوية حادة .. أما هذه الضربات فناعمة مختلسة كقدم مخلبية لقط .. بالإضافة لهذا - إذ أصغيت بعناية - بدا لى أننى أميّز خطوات أربع أقدام لا اثنتين .

كنت واثقًا الآن أننى بصرخاتى قد جذبت وحشًا مفترسًا ما .. ربما أسد جبال دخل الكهف صدفة .. ولربما اختار الله (العلى القدير) لى ميتة

أسرع وأرحم من الجوع .. إلا أن غريزة البقاء ـ التى لا تنام تمامًا أبدًا ـ تحركت فى صدرى ، وبرغم أن الفرار من الخطر القادم قد يدخرنى لنهاية أبطأ وأقسى ، إلا أننى صممت على الذود عن حياتى بأغلى ثمن لدى ..

لزمت الصمت على أمل أن الوحش القادم سيفقد اتجاهى فى غياب الصوت ، ويمر بى .. لكن ما كان هذا الأمل ليتحقق .. لأن الخطوات الغريبة واصلت التقدم .. لابد أن الحيوان شم رائحتى التى ـ فى جو خال من كل التأثيرات كما فى هذا الكهف ـ يمكن تتبعها لمسافات هائلة ..

وإذ أدركت أننى يجب أن أتسلح للدفاع أمام تلك الهجمة غير المرئية فى الظلام ، جمعت كل ما وجدت من صخور متناثرة على أرضية الكهف ، وأمسكت بواحدة فى كل يد لاستعمالها العاجل .. وانتظرت ما سيحدث ..

فى الوقت ذاته استمرت ضوضاء المخالب القادمة .. من المؤكد أن سلوك هذا الوحش غريب .. أكثر الوقت كانت الخطى توحى بحيوان يمشى على أربع ، بلا اتساق بين الطرفين الأماميين والخلفيين .. وفى لحظات أخرى قصيرة كنت أشعر أنه يمشى على قدمين .. تساءلت عن نوع هذا الحيوان ..لابد أنه حيوان عاثر الحظ دفع ثمن فضوله ورغبته فى استكشاف الكهف غاليًا ..

لابد أنه يلتهم الوطاويط والفئران ، وربما أسماك نهر (جرين) التى تدخل الكهف مع السيول ، وتتصل بمياهه بشكل غامض ..

وتذكرت ما تحكيه الأساطير المحلية عن التحولات المريعة التى طرأت لمرضى السل ، بعد الفترة الطويلة التى قضوها فى ظلام الكهف ..

وتذكرت ـ مبهوتًا ـ أننى وإن تغلبت على مهاجمى

فلن أعرف أبدًا كيف يبدو ، لأن مصباحى قد انتهـى ، وليست معى أعواد ثقاب ..

كـان الضغـط فـى مخـى مريعًـا الآن ، وراح خيالى المريض يرينى أشكالاً مفزعـة فـى الظـلام المحيط بى .. أقرب أقرب أقرب تدنو الخطوات .. أشعر أن علىّ أن أصرخ لكننى حتى لو نويت هـذا فما كان صوتى ليستجيب .. كنت متجمدًا حيث أنا .. وتساءلت عما إذا كانت ذراعى اليمنى قادرة علـى إطلاق قذيفتها ، لو جاءت اللحظة ..

الآن صارت الخطى دانية جدًا .. يمكننى سماع التنفس الثقيل للحيوانِ وأدركت أنه بالتـأكيد آت من قريب .. وكنت منهكًا .. اندفعت يدى اليمنى مهتديـة بحاسة سمعى الموثوق فيها ، لتقذف قطعة الحجر الجيرى نحو نقطة الظلام التى جاءت منها الخطـوات والأنفاس ..ولابد أنها كادت تحقق هدفها لأن الشـىء وثب مبتعدًا كما سمعت ، ووقف على مسافة صامتًا ..

هنا أطلقت قذيفتى الثانية بنجاح أكبر ، لأن الوحش فى هذه المرة تكوم أرضًا بـلا حـراك .. وجعلتنـى الراحة أزداد قوة فتراجعت للوراء نحو الجدار ..

استمر التنفس .. فـى شـهيق وزفـير ثقيليـن كأنهما الاحتضار .. فبينت هنا أننى لم أفعل أكثر من أن جرحت المخلوق . وزالت كل رغبة لدى فى فحص الشىء .. انتصر علىّ خوف غير مبرر أقرب إلى التطير ، فلم أدنُ من الجسد ولم أقذفه بالحجـارة لأقضى عليه .. بدلاً من هذا جريت بأقصى سرعة فى الاتجاه الذى تخيّلت أننى جئت منه ..

فجـأة سمعت صوتًا أو بالأحرى مجموعـة من الأصوات .. فى النهايـة تحولـت إلـى سلسـلة من القرقعات المعدنية الحادة ..

هذه المرة لاشك هنالك ..

إنه الدليل ..

وعندها ولولت .. استغثت .. بل صرخت فرحًا وأنا أرى بين الأقواس فوقى ، ذلك التألق الخافت الذى هو من مصباح يقترب . جريت لألقى الضياء وقبل أن أفهم ما حدث ، كنت راقدًا على الأرض بين قدمى الدليل .. أحتضن حذاءيه وأهذى بالكلمات ، وبطريقة حمقاء بلا معنى ـ برغم تحفظى الشديد ـ أحكى له قصتى الرهيبة ، وأرهقه بعبارات الامتنان ..

فى النهاية استعدت شيئًا قريبًا من وعيى الطبيعى .. لقد لاحظ الدليل غيابى حين وصل الجمع إلى مدخل الكهف . وقد راح يفتش عنى مهتديًا بحاسة اتجاهه الخاصة ، بادئًا من آخر مكان تكلمت معه فيه ، وقد وجد أثرى بعد أربع ساعات كاملة ..

وكنت قد اطمأننت لصحبته وكشافه ، فحكيت

له عن الوحش الذى قابلته من قليل ، واقترحت عليه أن نعود فقط لنتحقق من الأمر ونعرف أى نوع من الوحوش كان ..

وهكذا عدنا إلى حيث كان الصراع .. لمحنا جسمًا أبيض على الأرض .. جسمًا أكثر بياضًا من الحجر الجيرى ذاته .. بحذر تقدمنا شاعرين بدهشة مشتركة ، لأن هذا الشىء كان أغرب ما رأينا من وحوش غير عادية فى حياتنا .. بدا كقرد ضخم الجسد شبيه بالإنسان ، هارب فى الغالب من حديقة حيوان مجاورة ..

كان شعره فى بياض الثلج .. ربما كان هذا نتيجة التأثير المبيض للظلام داخل الكهف .. لكن الشعر لم يكن وافرًا إلا فوق الرأس ، حيث امتد ليغطى الكتفين ، بينما لم يكن له أثر على باقى الجسد ..

كان الوجه بعيدًا عنا لأن الوحش سقط فوقه .. ومن أطراف الأصابع كانت هناك مخالب طويلة ، واللون الأبيض غير الأرضى يغمر كل شىء .. لم يكن هناك ذيل ، وكان التنفس واهنًا الآن فأخرج الدليل مسدسه عازمًا على قتل المخلوق حالاً ..

هنا صدر صوت من المخلوق جعل السلاح يسقط على الأرض ..

كان الصوت ذا طبيعة لايسهل وصفها .. لم يكن كصوت أى من أنواع القردة المعروفة ، وتساءلت عما إذا كان هذا الصوت الغريب مكتسبًا بسبب الصمت الطويل فى هذا الكهف ؟ إننى أستطيع أن أصنف الصوت كنوع من الغمغمة العميقة ..

وفجأة دبت طاقة عجيبة فى جسد الوحش ..

راحت المخالب تتشنج والأطراف تتقلص .. ثم بهزة دار الجسد بحيث صار الوجه فى اتجاهنا ..

فى البداية أصابنى الهلع من العينين حتى إننى لم أر غيرهما .. كانتا سوداوين .. حالكتى السواد تتناقضان بشدة مع الشعر والجلد الأبيضين .. وكانتا غائرتين فى محجريهما ككل من يسكن الكهوف .. وإذ دققت النظر لاحظت أنهما فى وجه لم يبرز فكاه كما هو معتاد فى القردة .. وكان الأنف أقل تميزًا ..

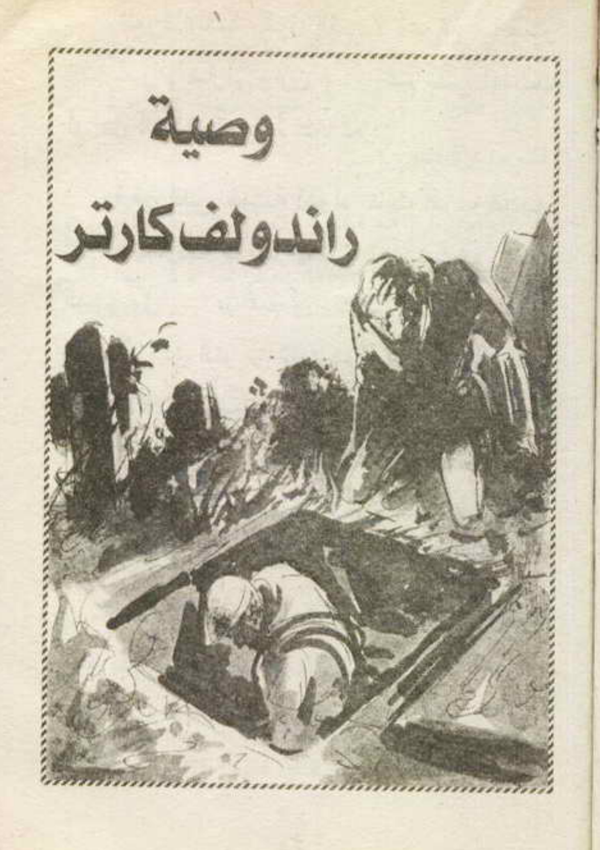
انفتحت الشفتان الغليظتان وخرجت أصوات مضطربة ، ثم غاب الوحش فى الموت ..

أمسك الدليل بكمى وارتجف حتى إن الضوء تراقص متشنجًا ، ملقيًا ظلالاً غريبة على الجدران ..

لم أتحرك وظللت واقفًا ، بينما عيناى المذعورتان متصلبتان على الأرض .. لقد ولى الخوف ، وحل

العجب والشـفقة والرهبـة مكانه .. لأن الأصوات التى أصدرها المخلوق الممدد فوق الحجر الجيرى ، قد أخبرتنا بحقيقته ..

إن المخلوق الذى قتلته .. ذلك الوحش العجيب فى الكهف الغامض .. هـو ـ أو قد كان كذلك ـ إنسان !!



« للمرة الثانية أقول إننى لا أعرف ما صار إليه أمر (هارلى وارن) ، برغم أننى أحسب أو آمل أنه نال المغفرة عما فعل ..

حقيقى أننى لخمسة أعوام كنت أقرب صديق له ، وشاركته جزئيًا أبحاثه المفزعة فى عالم المجهول .. برغم أن ذاكرتى واهنة غير واضحة ، لن أنكر أن شاهدكم هذا رآنا معًا كما يقول ، فى (جينزفيل) نمشى نحو (مستنقع قبرص الكبير) ، فى الحادية عشرة والنصف فى تلك الليلة المريعة . وأننا كنا نحمل مصابيح كهربية ورفشين ولفة من السلك تتصل بها أجهزة ما .. إن كل هذه الأشياء لعبت دورًا فى المشهد الرهيب الذى بقى فى ذاكرتى المهتزة ..

لكن بخصوص ما حدث بعد ذلك ، وسبب

العثور علىَّ وحيدًا تائهًا على حافة المستنقع ؛ فإننى أصر على أننى لا أعرف شيئا عدا ما قلت لكم مرارًا ومرارًا ..

تقولون لى إنه ما من شىء فى المستنقع أو حوله يبرر هذه النوبة المفزعة ، فأجيب بأننى لا أعرف إلا مارأيته ..

ربما كانت رؤيا أو كابوسًا .. كما آمل كثيراً .. تلك الأشياء التى يذكرها عقلى عما حدث فى الساعات الصادمة بعد ما ابتعدنا عن البشر .. أما لماذا لم يعد (هارلى وارن) ، فإنه أو ظله ـ أو شىء بلا اسم لا أستطيع وصفه ـ يمكنه أن يفسر ..

كما قلت من قبل ، فإن الدراسات الغريبة التى اهتم بها (هارلى وارن) معروفة جيدًا لى ، وإلى حد ما شاركت فيها . ومن بين مجموعته النادرة

من الكتب ، قرأت فقط تلك المكتوبة بلغات أجيدها ، لكن هذه كانت قليلة بالنسبة للغات التى لا أفهمها.. والكتاب الشيطانى بالذات الذى جلب النهاية ، كان مكتوبًا بحروف لم أر مثلها قط فى أى مكان . وما كان (وارين) ليخبرنى بمحتوى هذا الكتاب أبداً .. أما بالنسبة لطبيعة دراساتنا فإن علىّ أن أقول إننى لم أعد أفهمها تمامًا .. ويؤسفنى أن أقول هذا لأننى كنت مهتمًا بها من قبيل النفور المفتون أكثر منه ميلاً حقيقيًا .

كان (وارن) يسيطر علىّ دومًا ، وأحيانًا كنت أخشاه .. أذكر كيف نفرت من التعبير العجيب على وجهه فى ليلة الحادث ، وهو يحكى لى نظريته .. عن لماذا لا تتحلل بعض الجثث بل تبقى آلاف السنين فى قبورها ممتلئة متماسكة . لكننى لا أخشاه الآن فأنا أعرف أنه عاش أهوالاً تفوق تصوراتى ، ولهذا أخاف عليه ..

ومن جديد أكرر أنه ليست لدى فكرة واضحة عن هدفنا ليلتها .. لابد أنه كان متعلقًا بالكتاب الذى يحمله (وارين) معه .. ذلك الكتاب العتيق بحروفه العجيبة ، والذى جاء من الهند منذ بضعة أيام . يقول شاهدكم إنه رآنا فى (جينزفيل) نمشى نحو (مستنقع قبرص الكبير) ، فى الحادية عشرة والنصف .. ربما كان هذا صحيحًا لكننى لا أذكره بوضوح . إن ما أذكره هو مشهد واحد لا أكثر .. لابد أن الساعة كانت بعد منتصف الليل وقتها .. وكان الهلال الخافت عاليًا وسط سماء ضبابية ..

المكان كان مقبرة قديمة .. قديمة إلى حد أننى ارتجفت من شواهد القبور العتيقة . كانت رطبة مبللة تغطيها الأعشاب والغصون المتسلقة ، ولها رائحة عطنة جعلت خيالى يتصورها رائحة الحجر المتعفن ..

وعلى كل جانب كانت علامات الإهمال والتداعى ، وقد طاردتنى فكرة أننى و(وارين) أول مخلوقين حيين نغزو صمت القرون القاتل ..

وعلى ضوء الهلال المخيف الباهت ، تبينت مجموعة من الجرار القديمة والأنصاب التذكارية ، وكلها قد كستها الأعشاب .. كان أول انطباع لى عن وجودى فى مدينة الموتى الرهيبة هذه ، هو وقفتى المتصلبة مع (وارين) أمام ضريح معين نصف مكشوف ، وإنزالنا بعض الأحمال التى كانت معنا ...

هنا لاحظت أننى أحمل كشافًا كهربيًا ورفشين ، بينما رفيقى كان يحمل مثلى كشافًا وآلة هاتف متنقلة .. لم ننطق بكلمة لأننا كنا نعرف مهمتنا ، ودون إبطاء رحنا نزيح الأعشاب والتربة ، ثم تراجعنا إلى الوراء لنرى المشهد ، وبدا كأن

(وارين) يجرى بعض الحسابات الذهنية ، ثم تناول الرفش يستعمله كرافعة ، ليرفع بها اللوح القريب من حجر ربما كان أثرًا مهمًا .. لم يفلح وأشار لى كى أعاونه . فى النهاية أفلحت جهودنا فى رفع اللوح ..

ظهرت لنا فجوة سوداء منها انبعثت رائحة مقززة جعلتنا نتراجع فى ذعر .. بعد قليل عدنا إلى الفتحة فوجدنا الرائحة قد صارت محتملة .. أظهرت مصابيحنا درجات سلم حجرى مغطاة بمادة مقززة من قلب الأرض ، وحولها جدران رطبة تغطيها أملاح النترات .. والآن للمرة الأولى أتذكر محادثة .. كان (وارين) يقول لى بصوته الغليظ الخفيض :

ـ « آسف أن أطلب منك الانتظار على السطح ،

لكنها جريمة أن أترك واحدًا بأعصابك الواهنة يهبط لأسفل .. لن تتخيل من كل ما قرأت وما قلت لك ، أية أشياء أنوى أن أراها وأفعلها .. إنه عمل مقيت يا (كارتر) ولا أحسب رجلاً لا يملك أعصابًا من حديد ، بقادر على أن يراها ثم يخرج حيًا عاقلاً .. يعلم اللّه أننى سأكون سعيدًا لو صحبتك معى ، لكن المسئولية مسئوليتى أنا .. ولن أدعو حزمة أعصاب مثلك إلى الجنون أو الموت .. أنت لن تتخيل كيف يبدو الشىء ، لكنى سأخبرك بالهاتف عن كل حركة .. أنت ترى أن معى سلكًا يكفى من هنا لبلوغ مركز الأرض ، والعودة منه ! »

مازلت أذكر هذه الكلمات ، وأذكر احتجاجى .. كنت راغبًا فى اصطحابه إلى أعماق الضريح ، لكنه كان عنيدًا لا يتزحزح .. وهدد بأن يتخلى

عن الأمر لو أننى أصررت .. وهو تهديد فعال ، لأنه الوحيد الذى يملك المفتاح ..

أذكر هذا كله ، وإن كنت لا أذكر ما كنا نبحث عنه .. التقط لفة السلك وناولنى أحد الهاتفين فأمسكته فى يدى ، وجلست على شاهد قبر حجرى عتيق .. ثم إنه صافحنى ولف السلك على كتفه ، واختفى فى المقبرة التى لا توصف .. ولدقيقة ظللت أرى ضوء كشافه وصوت السلك الذى ينفك من البكرة خلفه ثم اختفى الضوء .. وكذا اختفى الصوت سريعًا ..

كنت وحدى .. ظللت أرمق ساعتى على ضوء الكشاف ، وأصغى فى لهفة للأصوات القادمة من السماعة .. لكن لمدة نصف ساعة لم أسمع شيئًا ..

ثم دوت طقطقة من الأداة ، فناديت صاحبى

بصوت متوتر لأننى كنت أتوجس خوفًا .. لكنى لم أتوقع الأصوات التى وصلتنى فى لهجة راجفة خائفة لم أسمعها قط من (وارين) . الآن ينادينى فى همس مذعور أعنف من أى صراخ مستغيث :

ـ « رباه !! لو رأيت ما أراه ! »

لم أملك إجابة فصمت .. وبعد قليل جاءت صيحته :

ـ « (كارتر) .. هذا مخيف .. مفزع .. لايصدق !! »

هذه المرة لم يخذلنى صوتى ، فصببت فى السماعة طوفانًا من الأسئلة .. ورحت أردد :

ـ « (وارين) .. ما هذا ؟ ماذا هنالك ؟ »

من جديد جاء صوته الذى كان الخوف يلجمه والآن غمره اليأس :

ـ « لا أستطيع أن أخبرك يا (كارتر) .. إنه يفوق الخيال .. لا أحد يملك أن يعرفه ويعيش .. يا إلهى العظيم ! أنا خائف ! »

ساد الصمت من جديد ، ثم جاء صوته المذعور :

ـ « (كارتر) ! باللّه عليك أعد غطاء الضريح وارحل .. هلم ! اترك كل شىء واخرج .. هذه فرصتك الوحيدة ! افعل ما أقول لك ولا تسألنى شرحًا ! »

سمعت لكننى واصلت أسئلتى الملهوفة . حولى القبور والظلام وتحتى ذعر يفوق خيال البشر .. لكن صاحبى فى خطر عظيم ، وإننى لحانق لأنه يحسبنى أتركه فى خطر هكذا ..

مزيد من القرقعة ، ثم بعد صمت جاءت صرخة موجعة من (وارين) فصحت وقد تجمعت للقتال :

- « (وارين) .. تماسك .. إننى قادم لأسفل ! »

لكن ما إن قلت هذا حتى صارت لهجة صاحبى توحى بقنوط لا يوصف :

- « لاتفعل .. أنت لا تفهم ! لقد تأخر الوقت والخطأ خطئى .. لا شىء بوسعك ولا بوسع إنسان آخر عمله ! »

ثم صار الصوت أنعم كأنما استسلم لمصيره تمامًا ، وعاد يقول :

- « أسرع قبل فوات الأوان ! »

حاولت أن أتغلب على الشلل كى ألحق به ، لكن همسته التالية وجدتنى مازلت فى أصفاد ذعر شديد ..

- « (كارتر) .. أسرع ! لم تعد جدوى .. واحد أفضل من اثنين .. أعد اللوح .. لقد كاد الأمر

ينتهى الآن .. لا تجعل الأمور أصعب .. غط هذه الدرجات وفر بحياتك .. أنت تضيع الوقت .. وداعًا يا (كارتر) فأنا لن أراك ثانية »

ثم استحالت همساته صراخًا .. صراخًا يحوى كل ذعر الأجيال :

- « تبًا لها ! ألوف منها ! رباه ! ! »

ثم ساد الصمت ..لا أعرف كم قرنًا لبثت متصلبًا أهمس وأصرخ فى الهاتف ..

- « (وارين) .. (وارين) .. أجبنى .. أمازلت هناك ؟ »

ثم شعرت بقمة الرعب المتوجة .. لقد قلت إن قرونًا مضت بعد ما صرخ (وارين) بآخر إنذار .. الآن كان هناك صوت قرقعة من السماعة ، وأنهكت أذنى لتسمعه ثانية .. ومن جديد صرخت :

- « (وارين) .. هل أنت هناك ؟ »

وهنا سمعت الشيء الذى وضع هذه السحابة على ذهنى ..

لا أحاول هنا يا سادة أن أصف هذا الصوت بالتفصيل ، لأن أولى الكلمات سلبتنى وعيى وخلقت خواءً عقليًا امتد حتى أفقت فى المستشفى .. هل أقول إن الصوت كان عميقًا بعيدًا جيلاتينيًا بلا جسد ؟

ماذا سأقول ؟ كانت هذه نهاية تجربتى ونهاية قصتى . لقد سمعته ولا أعرف سوى هذا .. سمعته وأنا جالس متحجرًا فى تلك المقبرة التى غطت شواهدها الأعشاب والأبخرة السامة ..

سمعته من أعمق أعماق الضريح وأنا أرمق

الظلال آكلة البشر ترقص تحت قمر باهت مشئوم .. وكان ما قاله الصوت هو :

- « يا أحمق ! إن (وارين) قد مات ! »

1919

★ ★ ★

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية
روايات عالمية للجيب



ماوراء العالم

36

وعاد (أوبد) إلى (إينزماوث) وقال لأهلها إنه يعرف طريقة مؤكدة لاجتلاب الأسماك ، وإنهاء هذا الخراب والمجاعة .. لكنه بحاجة إلى بعض الشجعان كي يعاونوه .. بالطبع فهم البحارة الذين كانوا معه على سفينته (ملكة سومطرة) ماينتويه وارتجفوا هلعًا وتقززًا ، بينما تحمس الباقون ..

« ومن يومها تغير كل شيء ، ولم تعد (إينزماوث) ذلك المرفأ الباسم الزاخر بالذهب ، لأن ظلاً مخيفًا قد سقط فوقها .. ظلاً لا يفارق كوابيس كل من يعيش قربها .. »

العدد القادم
خلف جدار النوم

الثمن فى مصر ٢٠٠ ص
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

مطابع سفاح القليوبية